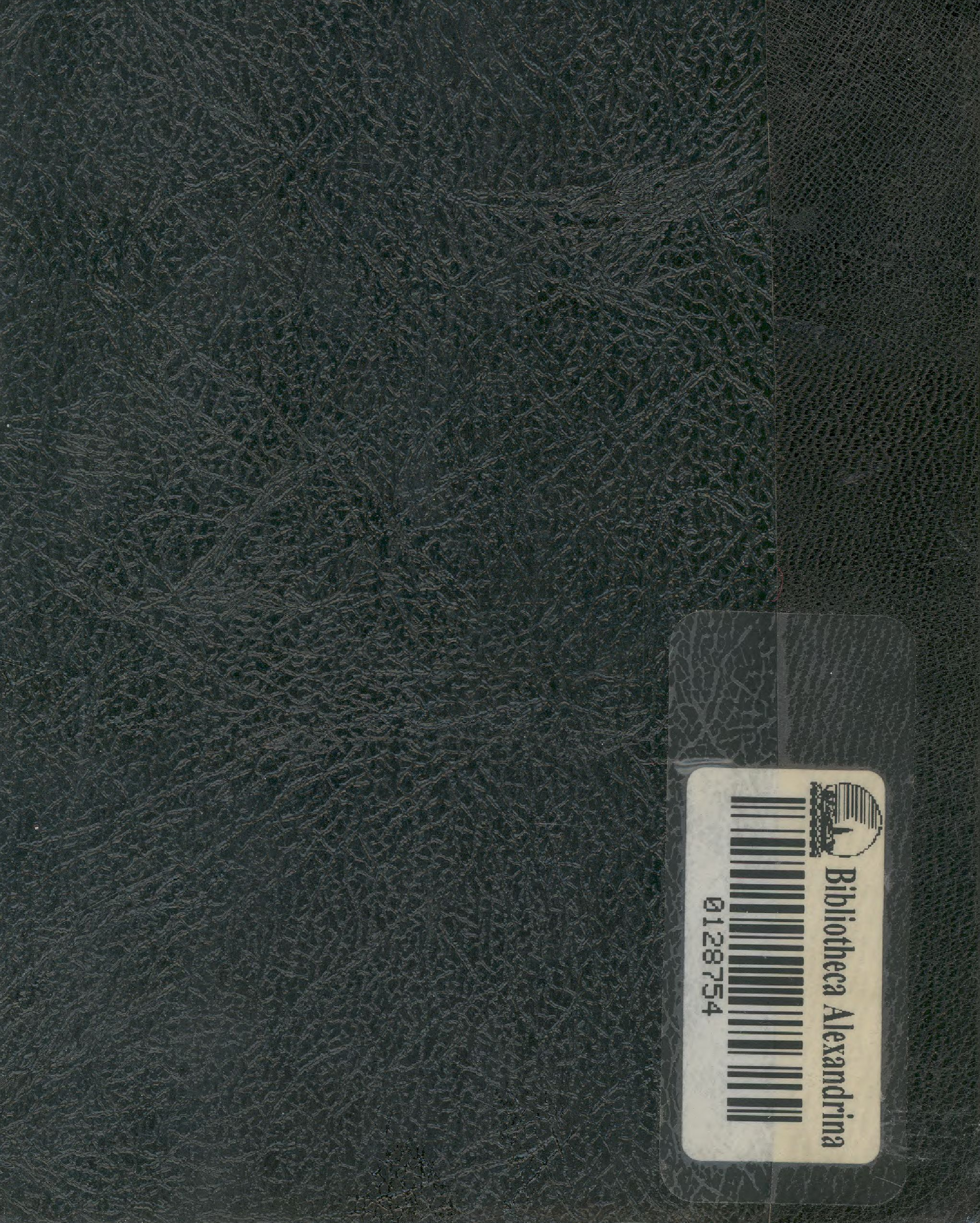
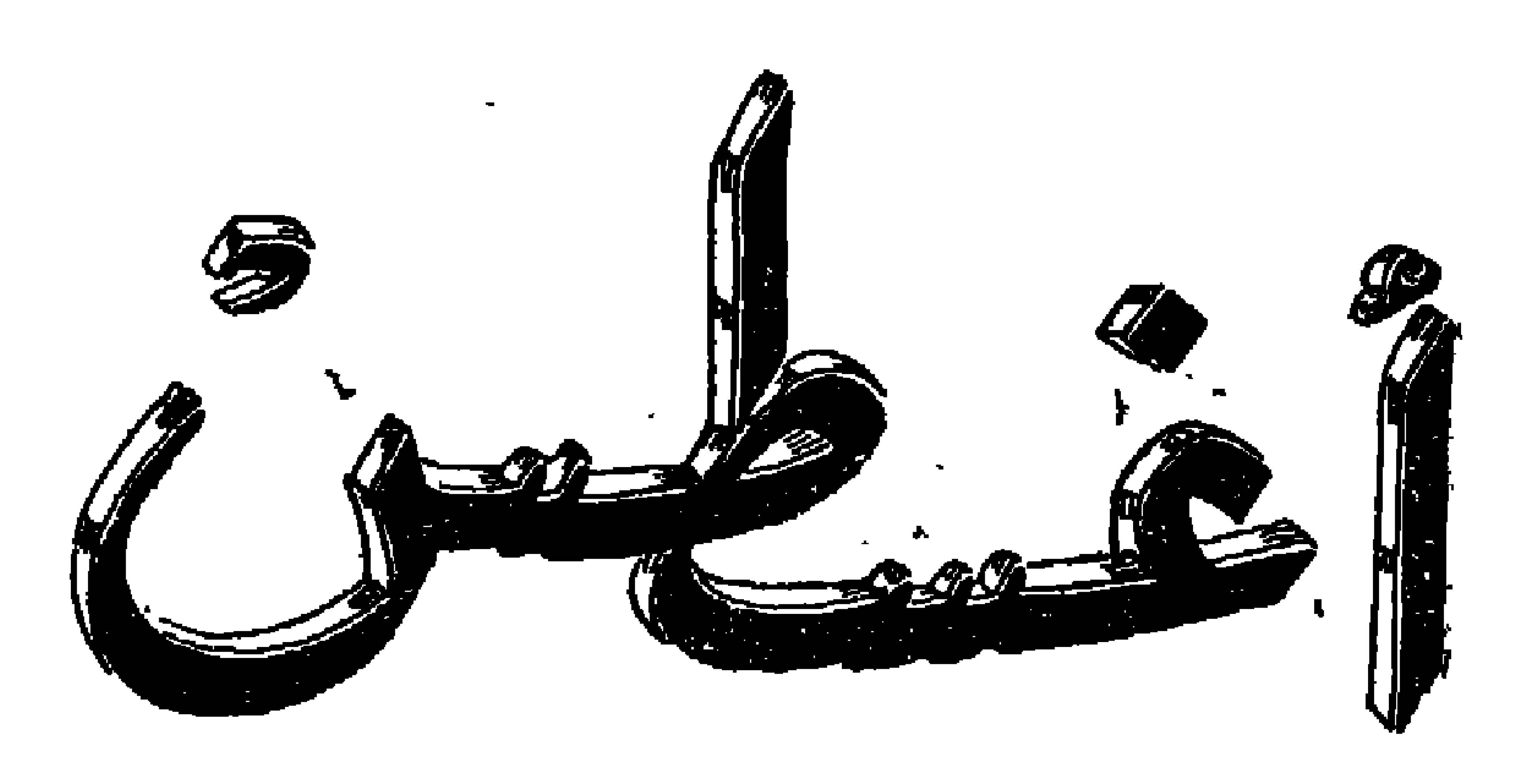


عبد اللطيف واكد



الرسالة الثالثة من رسائل شاعر

الرسائل العربية

وضع المال بدنيانا قياسا
لبنى الدنيا فيا بئس القياس
جرد الدهر من المال أناسا
أوليسوا فى الورى ضمن الاناس

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد :

فان أطهر امرأة شر من شيطان رجيم . . . ؟

واكد

منك، وإليك.. يا قلبي ؟

[illegible]

ليلاى ...!

أنت نور من السما
أنت نعمى من القدر
لك وجه كأنه
فى كثيف الدجى قمر
لك ثغر تضىء من
خلفه أبهج الدرر
أنت فى كل ما يخط
ط يراعى من الصور
من قريض ومن أقا
صيص حب ، ومن فكر
أنت أستاذتى التى
علمتنى من الصغر . . !
كيف أبكى من الجوى
وأغنى من الضجر
لك في كل لفظة . .
من كلامى أرى أثر



عبداللطيف واكيد

فبراير ۱۹۳۷

مقـــــدمة

الاستاذ اسماعيل مظهر
عضو المجمع المصرى للثقافة العلمية

فى أدوار الانتقال ، وبخاصة الانتقال الفكرى ، يصيب الناس ما يشبه الدوار الكاذب الذى يأخذ بمن يملكهم تيه الصحراء . والسبب في هذا ان الانتقال بطبعه حافز للهمم ، مثير للآمال ، موسع للمطامع ، فلا بد اذن فى أدوار الانتقال من كثرة الحركة ، في العقليات والماديات ، ولا بد إذن من القلق الذى هو نتاج لشبوب الأمل وعظيم المطامع . لهذا ترى أن لعصور الانتقال طابعاً خاصاً ، يسم مجمل ما ينتج ذلك العصر بميسم له صوره الخاصة . على أن تلك الصور ان تعددت وزايل بعضها بعضا من حيث القيمة والأثر والبقاء ، فان أخصها وأبعدها فى التأثير ، إنما هى الصور التى يتمخض عنها خيال مستمد من طبيعة البيئة ، أو من طبيعة الخلق الانسانى ، أو من طبيعة الحوادث . تلك الأشياء التى هى فى الحقيقة أدنى من المشاعر ، وأبعد عن العقل . وأخص ما تمتاز به أدوار

الانتقال ، خضوعها لمشاعر الناس ، وتملصها من أحكام العقول .
أما أطوار الاستقرار ، فعلى النقيض من ذلك ، تخضع لحكم العقل ، وتتملص قدر المستطاع من حكم المشاعر .

وقد يتفق أن تمر بالأمم في طور الانتقال فترات تلتهب فيها العاطفة ، ويشتعل فيها الخيال . كما قد تمر بها هنيهات تفتر فيها العاطفة ويستخفي الخيال . أما الفترات ، ففيها تدور عجلة التطور بأقصى ما يستطاع من السرعة ؛ وأما الهنيهات ، ففيها تتقاعد عجلة التطور عن الدوران اللازم لاستكمال ما يجب أن تأخذ به الأمم من أسباب الانتقال .

ولقد بلونا فى تاريخنا الحديث من أمثـــال ذلك الشيء الكثير . فقد رأينا كيف التهبت العواطف وثارت ، ورأينا كيف خمدت جذوة الخيال ، وكيف انتكست العواطف إلى عكس ما أملنا فيها ؛ غير انه قد بان لنا إلى جانب هذا كله أن نتائج البعث العاطفي مشفوعاً بنتائج الهمود ، كان جماعها خيراً . ذلك بأنها الخطوات الضرورية التى لا بد منها لتنتقل الأمة من أوج إلى أوج

وما مرت بذهنى هذه الخواطر وقد عمدت إلى كتابة تصدير لهذا الكتاب الصغير المفيد ، إلا لشعورى بأن الفترة التي نجتازها فترة ركود ، لعلها تكون سابقة لفترة من الشبوب

العاطفى الخيالى ، تنقلنا إلى أوج أرفع من الأوج الذى نحن فيه .

وقد رأيت فى هذا الكتاب نزعة إلى التوثب ، وخيالا فيه أصالة ، فلو أن مؤلفه الشاب الأديب ، قد استطاع به أن يحفز همم فئة من شبابنا إلى الأخذ بأسباب فضيلة التطلع إلى المثاليات ، وان يرجع بهم إلى تصورات ماضية منتزعة من طبيعة الحوادث ، فيستثير فيهم العاطفة و يوقظ الخيال ، إذن يكون قد أدى رسالة كريمة ، أشعر بأننا فى أشد الحاجة اليها .

اسماعيل مظهر



الحياة قصة . . ! !

وفى خواشى هذه القصة الأزلية ، قصص يصوغها القدر كل يوم . . !

سرح النظر فى صور العالم ، بتحقيق وتدقيق ، ترى قصصاً مختلفة ، تمثلها الحياة على مسرح الدنيا ، فصولها عجيبة ، وأصولها غريبة ، فى تلك الفترة القصيرة التى تثب فيها الشمس من المشرق إلى المغرب . . ! !

أعجب مافى الحياة . . المرأة . . ! !

وأرق ما فيها الجمال . .

وأقدس ما حوته . . الحب !

وأقسى ما ضمت بين جوانحها . . المال . . ! ! ؟

* * *

المرأة . . !

منجل الشر بين الناس ، ونبراس الخير بين العالمين . .

منجل الشر ، إن جرى فى عروقها دم أخيها إبليس
ونبراس الخير إن سرى فيهـا شعور حواء الذى اكتسبته من آدم . .

فيها مرارة الحياة . . وفيها حلاوتها . . !
ووداعتها ، وثورتها
وجمالها ، وقبحها
وصفاؤها ، واربدادها . .
وفتنتها وفتورها . . !!

كم شابا لا يريد أن يحيا لنفسه . . . وإنمـا من أجل فتاة أحبها ، يرى أن الحياة قد تمثلت فيها ؟؟

وكم رجلا ، قضى ردحاً من الزمان ، لايبالى . . أعاش أم مات ، فأزجى له القدر إمرأة جعلته يشعر بلذة العيش ، فتشبث بالحياة . . الحياة التى رآها جميلة ناعمة كالمرأة التى يعشق . . ؟!
يراها فى الحياة ، ويرى فيها الحياه !!

ولعمرى إن أقرب صفة تصل ما بين الحياة والمرأة ، هى التلون والرياء . . والمرأة عدا ذلك سريعة الملل لاتكاد تجرع كأساً من جدول ، حتى تنزع نفسها إلى غيره . .

على أنى أرى أن أطهر امرأة شر من شيطان رجيم . .
ومع ذلك فلم يزل بين ربوع العالم قوم يعبدون الشيطان. .

* * *

. . الجمال !!

أليس هو غذاء الروح الذى جمعت فيه الطبيعة عبقريتها ؟

والوحى الذى يصعد بهـا سابحاً فى الملأ الأعلى لتسبح بجمال الله وجلاله !!

أما هو قوام قصيد الشاعر ، ونغم الموسيقى ، ولحن البلبل ، وأنشودة النسيم التى يهمس بها فى آذان الزهر الناعس ، عند انبـلاج الفجر ، وقد تأرجح على أوراقه نثار قطرات الندى الفضية . . ؟ ؟

ولـكل شىء جمال . . ! !

ولـكل جمال سحر !

ولـكل سحر مذهب ، وتأثير ، وفتنة ! !

ولـكن أشد الجمال سحراً ، جمال المرأة . .

كل جمال تراه العين ، تتأثر به النفس ، وتود ألا تفارقه ، ولـكن لن يخفق له القلب ، وإن خفق فلا يدوم طويلا . .

إلا جمال المرأة . . ! ؟

أليس هو الذى يتغلغل فى النفس ، متخذاً طريقه إلى القلب فيغرس به أطهر بذرة ، لتنمو منها أقدس شجرة ، لتثمر ثمراً مراً أو حلواً . . ؟ ؟

تلك الشجرة ، شجرة الحب !!

فان كان حباً شقياً ، فثمرها مر ، وإن كان سعيدا فمذاقه الشهد ، وعصيره الخمر الحلال . .

في طعم الثمر ، طعم الحياة . . ؟

ومن جانب المرأة ، يستمد الشجر غذاءه ، والثمر ماءه

فأن هجرت ، فماء الثمر مر ، وعصيره علقم !

وإن رضيت ، فما هو إلا سلاف ورحيق . .

***

والمـال . .

ظالم قادر . ظلوم قاهر . . ؟ !

يضع الفوارق بين الأخوة الأشقاء ، فهذا غنى معزز ، مترف مدلل ، وذاك فقير مهضوم . ،

هــــذا ينعم فى رحاب نعمة المال ، وذاك يتألم في سجن ظلام الفقر .

يفرق الأحبة ، وينفث العـداوة بين الناس ويثير الحقد والطمع فى النفوس . . !!

كما أنه يولد الـكبرياء . . ويخلق فى الناس المداهنة والرياء .

(إلا الأدباء والشعراء ، . !!)

كم أديب فقير ، أحب فأخفق . . !!

وكم موسر حقير ، رغب وزاحمه . . فوفق !!
فبريق العسجد ، يسر الخرد (١) !
ورائحة المال . . تخضع الرجال . . !
وقليل من سلطانه ، يكفى لجعل المرء يمد سلطانه على كل شيء يريد .
يجعل الخادم سيداً ، والسيد خادماً !! ويستمد الضعيف منه القوة ، والعيي المنطق وفصاحة اللسان ، والجبان الشجاعة والمقدرة .
عبدته المرأة . . ومن ورائها سجد العالم ، يقدسه ويصلي من أجله . .
كل يبتغى السعادة . .
وكل يريد اللذة الدائمة . .
وكل تتوق نفسه إلى النعيم . .
وأين السعادة الخالدة . . واللذة الدائمة . والنعيم المقيم . . بين أحضان العالم ، فى مثل هذا الزمان . . بغير المال . ؟ ؟ ؟ !
على هذا كتبت قصصى . .

ومنه ألفت كتابى

---

(١) الخرد : بضم الخاء وتشديد الراء مفتوحة : الحسان .

قصة الحياة

كانت جالسة وحولها أبناؤها . . صغيرهم في مهده يناغي ، وثانيهم يلهو ، وأكبرهم يتحدث إلى أمه ، وهي تحيك ثوبا لابنتها التي بجوارها . .

طرق سمعها ـ بينما تصغي لوليدها ـ جلبة وضوضاء ووقع أقدام ، ما لبثت أن وقفت ، وأخذ أصحابها يقرعون بابها منادين بأعلى صوتهم :

ــ افتحي لنا بابك . . لنر ما في بيتك من سعادة وهناءة جميلتين . .

فأطلت عليهم من كوة ، وفي هدوء ودعة فاهت قائلة :

ــ مَن أنتم أيها الطارقون ؟ ؟

فقالوا : نحن (الناس) أتينا نستجدى عطفك ونطلب رضاءك وودك . .

فابتسمت في دل قائلة :

ــ انتظروا هنيهة فسأعطيكم ما تطلبون

والتفتت لوليدها الأكبر وقالت :

ـــ اذهب اليهم يا ولدى ، وأعطهم باسمك ماهم فيه راغبون ، وما أخالهم إلا بحكمك راضين ، وبعطائك قانعين . .

قال سمعاً يا أماه . . سأذهب اليهم وأعرفهم كيف يمكنهم بحسنك يستمتعون . .

* * *

وما كاد يفتح الباب حتى اندفع الناس اليه يتسابقون في قوة ، وما رآهم ينحدرون نحوه حتى رفع يده في وجوههم قائلا بصوت جهورى :

ـــ قفوا . .

فثبت كل فى مكانه فقال :

ـــ إلى أين أيها الناس تتسابقون ؟ ؟

فقالوا إلى هذا البيت الذى تسكنه أمنا (الحياة) حتى ينهل كل ما نفسه تشتهيه ، ويرتشف الكأس التى يرى لذته فيها

فقال : اصغوا إلى . فأنا رسول صاحبة البيت : ان كنتم تعقلون . .

فقالوا : تكلم . . تكلم يا رسول ذات السحر والجمال ، والعظمة والاجلال :

قال : أرسلتنى أمى

فقاطعه قائل : أهى أمك ؟ ؟

قال : نعم !

فقالوا جميعاً : تكلم ياربيب النعيم ، والجمال المقيم

قال : أرسلتني أمي ، لأحكم فيكم باسمي ، وأعطيكم مطالبكم تحت لوائي ، وأقضي حاجاتكم تحت عرشي . .

فتهامس القوم فيما بينهم ثم قالوا سائلين :

ــ وما اسمك

قال في جبروت عظيم بصوت جهوري :

ــ (الحق)

فصاح القوم والبشر يسودهم :

ــ أنعم بك من حاكم حكيم

وسكتوا برهة قالوا بعدها :

ــ وعلى أي شيء يخفق لواؤك ؟ ؟

فقال : على السلام والدعة :

فتهللوا قائلين :

أكرم به من لواء دونه الخاذلون . . وعلى أي دعائم يقوم عرشك ؟ ؟

فقال عرشي . تدعم أركانه الفضيلة :

فصفق القوم وهتفوا :

(ليحيا العرش إنه عرش عظيم)

— ٢ —

ومن عرشه العلى قال للناس :

(امتلكوا الدنيا ، و تمتعوا بكل ما اشتملت عليه وما أوصيكم إلا بالعدل والأخاء فى القسمة)

هب الناس سراعاً . وأخذ كل انسان ما أراد لنفسه دون أن يداخله الجشع وحب الأثرة ، فى قناعة جميلة ، بنفس هادئة مطمئنة ، وما زجر أحد أخاه أو نظر اليه شزرا

وعاشوا ردحا من الزمان ، يحكمهم ذلك السلطان وهم فى هناءة واطمئنان . .

— ٣ —

قالت الابنة : متى يا أماه أرتدى ذلك الثوب ؟ ؟ إننى أراه وكأنما قد انتهيت من حياكته

فقالت الأم : مهلا يا بنيتى ، وحاملة رسالتى ، وممثلتى بين الناس . . قد انتهى ثوبك فى ظاهره ، ولكن بقى فيه الشيء الكثير . .

قالت : ماذا يا أماه ؟ ؟ أنا لا أراه إلا بهياً وقشيباً

قالت الأم : سوف أطرزه بالسحر ، وأوشيه بالدهاء وأملأ حواشيه بالرياء ، وأصبغ أوصاله بالتلون . . حتى إذا ارتديته كنت ممثلتى فى كل ناحية من نواحى

فراحت الفتاة تلهو ، مرددة أنشودة الغرور ، وأغنية الكبرياء ، ونغم الفتنة :

«سوف تهبنى أمى السحر ، فيمكننى أن أسحر ألباب الرجال»

« وتزودنى بالدهاء ، فأمكر بالقوم »

« وستضع فى جعبتى ذخيرة من الرياء والتلون ، أدافع بها عن نفسى إذا غلبت على أمرى »

« فأبكى إذا أردت أن أتظاهر بالضعف حتى أسترق القلوب »

« وأضحك إن أردت أن أتظاهر بعدم الاكتراث فأقهر كل من أراد أن يتغلب على »

* * *

ومرت أعوام وأعوام

وما زالت الابنة تتغنى

وما أتمت الأم صناعة الثوب

* * *

ولما انتهت الأم من إتمام الثوب نادت قائلة :

ــ يا ابنتى ، يا حاملة رسالتى ، تعالى وارتدى الثوب الذى أعددته لك ، ولتكونى ممثلتى بحذق ، أمينة فى تبليغ الرسالة :

فأقبلت الفتاة تلهث فرحة وهى تقول :

ـــ لبيك يا أماه .. سأكون عند حسن ظنك بى

وارتدت الثوب

وأخذت تقبل وتدبر أمام مرآة الزمان

فأعجبت بنفسها

فداخلها الغرور

فتناولت بيدها لواء السحر ، لتجمع تحته العالمين ، وهمت بالخروج ، فاذا بأمها تناديها قائلة :

ـــ انتظرى حتى أعطيك رسالة لمن سيكون أكبر عون لك فى ذلك الميدان العظيم ..

فقالت : ومن هو يا أماه ؟ وهل هو حاذق مثلى أم أقل منى دهاء أم أكثر ؟؟

فقالت الأم : لا يمكننى أن أفرق بينك وبينه ، ولست أدرى أيكما أحذق ، فهو إبليس وأنت المرأة .

وحملت الرسالتين

رسالة أمها لابليس . ورسالة أمها لها

« من الحياة الى ابليس »

... ...

... حاملة رسالتى ، حواء ابنتى ، أرسلتها بين المجتمع الانسانى ، لتلعب دورها الخطير على مسرح الدنيا بعد ما قبعت

فى عزلتها ردحاً كبيراً من الزمان ، فكن لها عوناً على أداء المهمة . .

« الحياة »

قرأ ابليس الرسالة ثم وضعها فوق رأسه ، وراح يقبل أذيال المرأة التى تقف أمامه

نظرت اليه في احتقار . . وقالت فى أنفة وكبرياء ، وقد داخلها الغرور ، إذ ظنته مفتتناً بها :

ــ ما هذا الذى تفعل ؟ ؟ أبعد . . !

فقهقه بصوت عال ملأ ما بين السماء والأرض ونبه العالم لعظم الضجة التى أحدثها وقال :

أتخاف عليك أمك . . ! ؟ وتود منى مساعدتك بعد ما أفرغت عليك كل ما في كأسها من عذوبة ومرارة ، وقسوة ولين ؟ ؟

هيا تعالى معى ، ولتكونى عوناً لى على إفساد العالمين

* * *

وجلست المرأة فى روض بهيج ، خصته الأزاهير بالأريج ، فى معزل عما فى الحياة من ضجيج وعجيج .

وراح إبليس يبعث فى نفوس بعض الرجال الرغبة فى التنزه ، ثم قادهم إلى ذلك الروض الذى جلست على عرشه المرأة . .

مر بها رجل فأعجب بعودها الغض ، وجسمها البض ، فوقف يتأمل . .

يتأمل ذلك المخلوق الجميل ، ذا الطرف الكحيل

يتأمل الخد المتورد . . والقد الأهيف

يتأمل السحر الساحر ، والشعر الأسود

يتأمل الفتنة والجمال . .

ومر رجل آخر فلم يكن إلا كسابقه

وتساءل الرجلان :

ما هذا ! ! إنه لسحر ، إنها لفتنة . إنه لنعيم

وسكت الثانى واستطرد الأول :

ــ إنها لى وسوف أستمتع بها

فقال الثانى : كلا . ، وإنما هى لى دونك

فقال : أنا أحق بها منك ، فأنا الذى رآها أولا

فقال الثانى : هيا بنا نذهب لحاكمنا الحكيم ، فتكون لمن يحكم بها له . .

***

ومثل الرجلان أمام سلطان الحق . وقال كل قوله فحكم للأول .

وكاد الرجل الثانى يقتنع إلا إبليس أخذ يسر فى أذنه :

ـــ كيف يأخذها منك . . وأنت أحق بها منه؟! أنت ممتلىء الجسم وهو نحيف ، أنت قوى العضلات مفتول الساعدين وهو خلو من ذلك . هو لا يمتاز عنك إلا أنه حسن الطلعة وسيم . .

قل له احضرها أمامك فان قبلت فما أنا بمخالف :

☆☆☆

وجاءت المرأة

فرأت عرشاً عظيماً وملكا جالساً قد اشتعل رأسه شيباً وخط القدم على قسمات وجهه آى الضعف ، والاضمحلال . وما كادت تستقر بها القدم أمامه حتى سمعته يقول :

ـــ باسمى حكمت بأن تكونى للأول . .

فقالت متجاهلة فى لهجة ساخرة :

ـــ وما اسمك يا سيدى !!

فأجاب وقد بدا على وجهه الاستغراب : الحق

فابتسمت وقالت فى تهكم :

ـــ أيها الشيخ المتهدم : لقد دالت دولتك . وضعفت قوتك . فأنا لا أخضع لحكمك ، ولا أعترف بسلطانك فلست لهذا أو ذاك .

فتجهم وجهه . واحمرت عيناه ، وصرخ فى وجهها :

ـــ كيف تجرئين أيتها الخبيثة ،! متى نزلت الى الدنيا ، ومن الذى أرسلك اليها . .

فقالت في هدوء

ـــ أرسلتنى أمى ، وأصحبتنى أخى الأوسط ، وأوصت بنا ابليس

قالت ذلك والتفتت الى الرجلين قائلة :

ـــ من أرادنى منكما ، فليذهب الى ذلك الملك العظيم فان حكم له بى كنت له .

وساروا ثلاثتهم ، وتبعهم الجميع بايعاز من إبليس ليروا ماسيكون من أمر هؤلاء

* * *

ومثل الثلاثة أمام ملك فى عنفوان شبابه ، تلوح عليه سيماء القوة والبطش ، والاستبـــداد بالأمر ، وقال كل من الرجلين قصته :

وفي عظمة وجبروت فاه الملك

« باسمى حكمت بها للثانى »

فغلى الدم فى رأس الرجل المغلوب على أمره « صاحبها الأول » وقال بصوت الغضب :

ـــ وما اسمك أيها العاتى الغشوم ؟ ؟

فغضب الملك واهتاج في ثورة عنيفة ، وأمر بدق عنق الرجل لجرأته على الدفاع عن حقه ، ولم ينسه غضبه أن يجيب عن اسمه : « القوة »

وعظم سلطان القوة فاستبدت بالناس ؛ تذل الضعفاء وتعز الأقوياء ... وسار العالم تحت راية هذا الملك حقبة من الزمان فيها الفوز لمن كانت له الغلبة

— ٤ —

قال الابن الأصغر - لأمه - وقد بلغ أشده :

ـــ أماه .. لقد مضى أخواى من زمن وما إخالها إلا بحكم الناس يستمتعان . . فهل حان دورى ؟؟

قالت الأم : لقد حان دورك يابنى ، ولكنى أخشى عليك إن أنت أردت منازعة القوة سلطانها ، تقهرك بما لها من بطش شديد ، ولا تستطيع أن تؤسس دولتك وتبنى مجدك . . .

قال : فى مقدورى بدون كبير عناء

قالت . أفى عزمك أن تسلك الخطة التى سلكها سلطان القوة ؟ ؟

قال : ولم لا ؟ ؟

قالت : هذا ما أخافه عليك . فان لأخيك ثورة جامحة لا يمكن أن تهدأ إن أنت أردت أن تنال منه ذلك . . . وما هو

كأخيك الحق الذى سلم عند ما أمرت بنزول المرأة — التى هى عدوه اللدود — لتمثل دورها ، ولم يرض بأن يجمع بينهما ميدان

قال : لأسلكن خطة أخرى وما إخالها إلا ناجحة

قالت : وما هى ؟ ؟

قال : سأسخر القوة بادىء ذى بدء ، حتى يستتب لى الأمر ويرى الناس ما لى من مزايا ، وما أتحلى به من صفات

قالت : ولكن يابنى : ما الذى سيشعر الناس بوجودك فلو لم تكن المرأة هى التى أشعرت القوم ، بأن هنالك شيئاً يسمى القوة ، وأنها هى لا تكون إلا فى جانب القوى لما عرفوا أخاك ، ولا اهتم به أحد . . .

فابتسم الابن وقال : أماه : أنا ابنك العزيز المدلل ، فهل نسيت ما لى عليك من دل . . وأنت التى تعطرين ثيابى برائحة مخصوصة لكثرة حبك لى ؟ !

قالت : أجل يابنى . . أنت أعز أولادى ، ولم أنس ما أطيبك به من عطور ، فأنا التى اختلقتها اختلاقا وانها لكفيلة بأن تسكر من يستنشق عبيرها برياها العطر وإنها لميزتك الخاصة

قال : هذه هى التى ستشعر بى الناس ، وترشدهم الى مكانى ،

وكما لايفوتك أنك ألبست ابنتك ثوباً من أهم أوصاله التلون ، فان المرأة ولا شك ستكون أكبر عون لى ، فى مد سلطانى على العالمين ، وفى وقت يسير

فأعجبت الأم بقول وليدها وقالت :

ــ انزل إلى العالم يا بنى ، ولا زلت أوصيك بألا تحاول أن تسلب أخاك سلطانه مرة واحدة كما فعل هو بأخيه . .

وقبل الابن أمه ، ووعدته خير المساعدة ، ونزل ليمسك بصولجان الوجود . . .

— ٥ —

ملأ عبيره الجو ، ولمع بريقه في الأفق ، وتصاعد رنينه إلى عنان السماء ، فاشتم ابليس العبير ، وأخذ بصره الوميض واللمعان ، واستهوى سمعه الرنين

أخذ يحدق البصر ، ويدقق النظر ، حتى عرف مصدر البريق فهرع نحوه ، وهنالك رأى ما أذهله ، وجعله يفغر فاه ، ويقف حياله مشدوهاً

رأى أكواما من الذهب متراكمة فوق بعضها : وبعد برهة تنفس من أعماق صدره وقال :

ــ هذا هو المال .. هذا هو الذى سيقلب نظام العالم على عقبه . . هذا هو الذى ستقام له المعابد دون ريب .. هذا هو

الذى ستعبده المرأة والناس من ورائها سجود ..

وأطرق هنيهة ثم استطرد يحدث نفسه .

لو تركته وشأنه فلا ريب أن القوة ستستولى عليه تصغر من قيمته ، وتذهب ما سوف يكون له من سلطان فلأستول عليه وأدبر أمره بنفسى

وعاود الاطراق برهة قصيرة وأردف يقول :

ولو بقيت بجواره لقتلنا الدهر جلوساً دون أن يشعر بنا أحد ، وهنا يكون مصيره العدم ، ومصيرى الركود والاهمال فلأشعر به القوم وأرى ما عساهم يفعلون

وراح يقذف بقطع من صفائح الذهب في الهواء ، فتساقط فوق بعضها ، فتحدث رنيناً يستهوى الأفئدة .. وسناؤه تحت أشعة الشمس المتساقطة يشع فى الافق بريقه ولمعانه

* * *

ردد الصدى الرنين .. ولمع فى صفحة الافق البريق ..
وكانت المرأة جالسة قلقة تفكر ..

« الحياة أمامها تسير على وتيرة واحدة ، وليس فيها من جديد يجعل النفس تستسيغها .. وكيف أنها أخذت تتبرم بسلطان القوة : وتمقت نظمه ودساتيره التى يسير عليها العالم »

وبينا هى محلقة ببصرها فى الفضاء ، تسبح فى لجج أفكارها إذ لمحت الوهج اللامع ، يتألق فى صفحة الافق البعيد ، وطرق

سمعها ذلك الصوت الجميل .. صوت رنين الذهب .. ؟!

أخذت تتلفت حيرى .. تفتش عن الجهة التى يصدر منها ذلك الوهج الخاطف ، والوميض الشديد ، وترهف السمع علها تتبين : من أين يحمل الأثير لمسمعها ذلك الرنين :

وأخيراً أمكنها أن تهتدى

وما كادت تشرف عليه ، حتى رأت ابليس يقوم بتلك العملية التى أخذ على نفسه عهداً بأن يشعر بواسطتها العالم بهبوط المال إلى الأرض ليحكم فيهم بدوره

وقفت حياله بزهة صامتة ساكتة فلم يعرها أى انتباه ، وهو يجد فى عمله .. وأخيراً قالت :

ــ ماذا تصنع يا إبليس ؟ ؟

فأجابها دون أن ينظر اليها وبغير اكتراث :

ــ أصنع ما قد ترين

فابتسمت في إغراء وقالت فى دل : أنا لا أراك تصنع شيئاً

فأجابها وهو يواصل العمل : اذن فأنا لا أصنع شيئاً

ــ ولكننى أراك تقذف فى الفضاء بصفائح صفراء. وكأنما تلهو

فتوقف عن العمل ونظر اليها شزراً وقال :

ــ أنا لا ألهو ، وانما أقوم بواجبى نحو من أسلم إلى قياده ووهبنى من قوته وعزته ، وسلطانه وعظمته ، ما أستطيع

بواسطته أن أتحكم فى العالم ردحاً من الزمان

ـــ وهل تثق بأنك ستقوم بهذه المهمة خير قيام ؟؟

فقال في تهكم : أظنك أنت التى تستطيع القيام بها خيراً منى ؟؟

فقالت وقد بدا عليها الغرور : وهل فى ذلك ريب ؟؟

فاهتاج ابليس قليلا وصرخ فيها قائلا : أما زال الغرور يسيطر على مشاعرك ؟ متى يفارقك ؟؟ اغربى عنى فأننى لا أحب أن أراك بعد الآن

وفى شبه وعيد قالت : ألا تذعن ؟ ؟

فأجابها فى سخرية : كلا لن أذعن ، وخير لك أن تذهبى فلست الآن ممن يضيعون الوقت سدى . .

فتثنت وتلوت وقالت مستضعفة فى اغراء وفتنة :

ـــ تخل لى عن منصبك فأنا أقدر منك على القيام بأعبائه

فقال وقد زاد اهتياجه : اغربى عن وجهى أيتها اللعينة

فقالت محذرة : تندم !

ـــ وعلام الندم ما دام أجل شيء في العالم فى يدى ؟؟

ـــ ألا تخضع ؟؟

فقهقه ابليس بصوت عظيم ملأ ما بين السماء والأرض وقال : تريد حواء أن تخضع ابليس فيا للعجب !!

فقالت وقد صدق وعيدها : سوف اغتصبه منك بالقوة
فقال وقد احتدم غيظه : اذهبي وإلا مثلت بك

* * *

وراحت المرأة غضبى
وجمعت أشداء الرجال!
وجاءت أمامهم حتى وقفت بالقرب من ابليس وقامت كالخطيب في يوم الخطب وقالت :
من أراد أن يستمتع بي فليحضر لي بعضاً من ذلك الأصفر الرنان
فهرعوا جميعاً إلى ابليس
وما رآهم ينحدرون نحوه حتى صاح فيهم : قفوا .. إلى أين
ـــ اليك لكي يأخذ كل منا بعضاً من هذا . . (مشيرين إلى الذهب)
فقهقه ابليس وقال : بأى حق تأخذون ؟ لقد أردتم محالا
فقالوا : بالقوة
وهموا بالهجوم على أكوام الذهب المتراكمة ، فأمسك باثنين منهما وقذف بهما الجميع ، فولوا هاربين ..

* * *

قالت المرأة : أما استطاع أحدكم أن يغتصب منه بعضاً بالقوة ؟ ؟

ـــ كيف وقد أمسك باثنين منا وقذف بهما الجميع ؟ ولكن ما قيمة ذلك الأصفر الرنان فى نظرك ؟؟

ـــ ما قيمته ؟ ؟ ألا تعلمون بأن الحياة لا توصد باباً من أبواب فراديسها وجنات نعيمها فى وجه من يستمد منه بعض السلطان ؟؟ إنه ابن الحياة الأعز ـــ إنه المال : والمال كل شيء فى الحياة

ـــ وما الحيلة إلى الوصول اليه ؟؟

ـــ أرى سبيلا !

ـــ وما هو ؟

ـــ ليذهب اليه من أرادنى ، ويطلب منه أن يعهد اليه بعمل وينقده أجره عند الانتهاء منه

وذهبوا إلى إبليس

وعهد لكل منهم بعمل قضى فيه طيلة يومه

وفي النهاية أعطاهم أجورهم .. إلا أنه أعطى بعضهم أكثر من البعض الآخر . . . فكانت المرأة فى جانب من في يده الكثير

وفى اليوم الثانى طلب هؤلاء الذين نقدوا الأجر القليل أن يزاد عملهم على أن يزاد فى أجرهم ، فأجيبوا الى طلبهم فكانت المرأة فى جانبهم . .

وهكذا أخذ المال يستبد بالقوة ويسخرها ، وإبليس يحكم التصرف ، حتى عظم شأنه ، تركه يحكم بنفسه . .

***

وسار العالم أجمع وكل يكدح من أجل المال

وسيطر سلطانه على القلوب والنفوس والعقول والأفكار

وبلغت الدرجة ببعض الناس أنهم كرسوا حياتهم لجمعه دون تصريفه ، متلذذين بالنظر إلى وهجه اللامع في خزائنهم حتى يدركهم الموت دون أن ينفقوا منه درهما واحداً

ومنهم من ألهاه المال عن الأهل والأبناء ، والخلان والأصدقاء ، واختلى بنفسه وبالمال كأنه يتعبد . . يقطع النهار كادحاً ، والليل مفكراً ، فى كيفية الحصول عليه

ومن برم بذويه ، وصاحبته وبنيه ، عند مارأى المال يمده بعض عزته وقوته

— ٦ —

ولما جاءت الحياة تحتضر ، جمعت أولادها حولها ، وأخذت تقول مشيرة للحق :

« أنت خالد يابنى ، رغم ما عانيت فى الحياة الدنيا ، ورغم تلك السنين التى قضيتها مريضاً فوق مهدك بين أهلك القليلين »

ثم التفتت للمال والقوة وقالت :

« أما أنتما فمصيركما الفناء مثلى »

* * *

في دار الخلود

جلس الحق على سرير الملك ، والناس من حوله فرحين تتألق على ثغورهم ابتسامات الرضا والبشر :

وأول كلمة فاه بها الملك :

« فى الحياة الدنيا ، قهرنى المال ، وسخرت بى القوة ، ولم تلبث أن تغلبت على . . إلا أننى خلدت وقد فنى الاثنان »

***

حكمة بالغة فى هذا الزمان

« يقهر المال الحق ويسخر القوة »

عبد اللطيف واكد

اغسطس

شهر الفواجع ، والنوازل ، والمآسى
شهر به يطغى ، ويقسو كل قاسى

— ١ —

قالوا : أغسطس . . ! ! قلت ما هذا النداء
فأجابنى صوت يجلجل فى الفضاء . . !
ملك ظلوم فى زمان قد خلا . .
خضعت له الرومان والقوم الأولى
كانوا جبابرة عصاة . . شامخين !
أبطال ذاك العهد . . عهد الأولين
جبروته ، وجلاله ، جعلا الأنام
يدعون شهراً باسمه في كل عام . . . !
شهر الفواجع ، والنوازل . . والمآسى
شهر به يطغى ، ويقسو كل قاسى !

— ٢ —

نيرون .. من نيرون ؟؟ جبار عنيد
فلأنه لأغسطس القاسى حفيد
جرت القساوة والشراسة فى دمائه
فتخيل الدنيا جميعاً من إمائه ..!
وهو المهيمن فوق أعناق البشر ..
يعطيهمو ما شاء من خير وشر
وعليهمو تقع المصيبة إن غضب
وإليهمو يهب السعادة إن طرب

* * *

وأحس يوماً بين جنبيه .. حزن
وبحزن عاتية كذا لا تستهن !
ماذا يبدد حزنه ..؟ غيد حسان ؟؟
بثغورهن تلألأ الدر الجمان ..!
إن يبتسمن يضئن ديجور الظلام
أو يكتئبن .. فما الحياة سوى جهام .

* * *

أم روضة فيحاء فيها للزهر !
دولات حسن .. ريحها حلو عطر

إن مسها نسم جرى عند الأصيل
مالت ترف .. زهورها تسبى العقول

* * *

أم أكؤس الراح .. وللراح فنون ..!
تجلو الأسى ..!! أم ماذا يا ليلى يكون

* * *

لا الغيد يا ليلى ، ولا الروض البهيج
لا الدر من خلف الثغور.. ولا الأريج
حتى ولا صافى الحيا فى الكؤوس !
فيها الشعاع سرى .. بمذهبة العبوس
من نفس طاغية وجبار غشوم ..!
ملك تغطرس .. فهو سفاك ظلوم
فى رأسه نار الشراسة تضطرم
وبنفسه الشر المجسم قد جثم ..!
ماذا إذن يا ليل ..؟؟ هلا تعلمين ؟؟
لا شىء غير صراخ قوم يحرقون
بشر بنار الظلم يلقون الحمام ..!
هم أبرياء وإنما صاروا حطام !
لجحيم نيرون المؤجج باللهب ..!!

روما الأتون ومن بها مثل الحطب
إذ أشعل الطاغى بها نار السعير !
ليرى العذاب بناره .. فيرى السرور
لما يزف الريح أصوات الأنين
تسرى كأنغام يقطعها الحنين ..!
وتسيل من قلب يمزقه الألم ..
من عاشق .. من والد .. من قلب أم
تخشى على أبنائها غول المنون
بأتون نيرون .. وما أقسى الأتون
فالشيب ، والشبان ، والنشء الصغار
يرجون أن ينجوا .. ومن أين الفرار ؟

* * *

والنار أهلكت الجميع ولم تذر ..
لحماً ولا عظماً .. ولا دم ينحدر
بل أحرقوا ، والله ينظر من علاه
نيرون يبسم بهجة .. ماذا جناه ؟
لا شىء غير قساوة من جده ،.
نادته — لى أمرها — من لحده !

— ٣ —

شهر المآسى ، والفواجع ، والنوازل

شهر ـ لحـاه الله ـ بالآلام حافل
إن تقرئى ياليـل تاريخ الأمم !
ما فيه ياليـلاى من حزن وهم !
وحوادث كبرى لها شـأن عظيم
هى في أغسطس كلها كانت تهيم ! !

* * *

فقدت به مصر العزيزة سـعدها
وتسربل النيل السعيد . . ومن بها
من فتية يرجون مجداً للبـلاد
بالحزن ياليـلى . . وأثواب الحداد

* * *

شهر به الآلام تنتزع « الأنين » (١)
من قلبى المـكلوم . . ياليلى الحزين !
وبه جرت ياليل أنهار « الدماء » (٢)
ودماء من ياليل غير الأبرياء ؟
دمى المهراق وأنت من لى قد قتل
وقسوت ياليلى فهدمت الأمل . . ! !

* * *

(١) الرسالة الأولى للمؤلف وقد صدرت فى ٢٣ أغسطس سنة ١٩٣٤
(٢) « الثانية « « « ١٥ . « سنة ١٩٣٥

فيه توارت كل آمالى . . العظام . . !
وتهدمت نفسى . وغشاها الظـــلام
وبقيت حياً ، فى الحيـــاة بلا رجاء
ماذا الحيـاة إذن ؟ ؟ أليست فى عنـاء
تمضى ــ بى الأيام ــ في ركب بطىء !
في دجنة دكـــناء . . لا أمل يضىء
فالنـــور يا ليــلاى طارده الغسق
والنجم غاب . . وقد خـلا جو الأفق
من كل نبراس عليـه أهتدى . . !
بين الحياة . . وفى الظـــلام السرمدى

٭٭٭

ليـلى . . وداعـاً يا حيـــاة ويا أمل
أهـــلا بموت جاء تحـدوه العلل !
فالى الفناء تسـير يا ليـلى القـدم . . !
إنى سأقضى بين أنغـــام الألم . . !
لا تسـكبي دمعـــاً على صب حزين
يقضى كما يقضى جميع البائسـين . . !
بين « الدماء » وبين أصوات « الأنين »
ليـلاى . . يا ليـلاى . . هلا تذكرين ؟ ؟



ــ مرغريت . . أهواك . . !!

نظرت إليه يطبع قبلة على يدها . . وثغرها يبسم ، دون أن تتكلم . . وعينها تنطق بكمين الهوى . . !!

وعاد يرفع إلى وجهها المشرق ، أحداقاً هائمة . . !

واستطرد الدوق دى كيز :

ــ أتحبينى . . ؟؟

قالت بصوت رقيق ، كتغريد البلبل :

ــ وهل يخفى ما فى القلب يا أميرى . . ؟؟

فراح يمرغ رأسه على صدرها ، ثم زم شفتيه ورفعهما ، ومالت هى برأسها حتى تلاقت الشفاه . . وكانت قبلة طويلة معسولة . . سكر بخمرها الحبيبان . . !!

كان ذلك فى أصيل اليوم الأول من شهر أغسطس عام

١٥٧٢ .. إذ كان الدوق دى كيز جالساً وابنة عمه ، الأميرة مرغريت ، أخت الملك شارل التاسع .. وابنة الشيطانة الشرسة ، كا ين دى مدسيس ملكة فرنسا .. !

وكان الجو صافياً ..

وكان مجلسهما مطلا على نهر السين .. وهما يرقبان تسلل الماء تحت الشرفة ، بين ضفتى الجدول العظيم .. !

وانتبها فجأة على صوت رشاش الماء تساقط من مجاديف زورق يدنو من الشرفة .. !

ووقف به فتى فى ثياب الفرسان .. وأدى التحية للدوق الذى عرفه عند ما رآه .. فأطل إليه ..

قال الفارس الصغير :

— يريدونك يا مولاى .. !

قال الدوق — انتظر .. !!

وانبرى لفتاته .. وقبلها .. قبلة مصدرها القلب .. وطريقها الشفاه .. وإن هى إلا رسالة تحمل أقدس شعائر الحب ، وآى الأخلاص .. !!

... ... وبعد برهة كان الزورق يبتعد عن أسوار اللوفر .. وفيه الدوق و الفارس الصغير .. ومرغريت ترسل بصرها في أثرهما مشيعة .. وفى عينيها

الحالمتين بريق جميل . . ما هو إلا انعكاس أشعة النفس التى امتلأت بنور الحب . . !!

* * *

هذا العهد . .عهد السم والخنجر والدسائس . . !!

هذه هى الجملة التى كانت تتردد على فم كل ذى إلمام بشؤون عصره . . نابه الفكر . . إذ كان الملك شارل التاسع ملك فرنسا ، ليس له من الملك إلا صورته . . ومقاليد الحكم . . ومتاعبه ، ملقاة على كاهل امرأة . . هى أقدر من عرف التاريخ من النساء . . حية رقطاء ، غادرة أثيمة . . تلطخت يداها بدماء الأبرياء . .تلك المرأة : هى كترين دى مدسيس . . أم الملك ..!

وكانت فرنسا منقسمة إلى طائفتين . . طائفة الكاثوليك . . وهؤلاء حزب الكنيسة الذى تساعده كترين وتعضده . . ويتزعمه الدوق دى كيز . الذى هو عونها الأكبر ، وابن عم الملك . . وحبيب مرغريت . . !!

وطائفة البروتستانت أو الهيكنوت . . وهى طائفة تعدها الطائفة الأولى معادية للكنيسة ومخالفة لأوامر البابا . . ويضمرون لها أشد العداء ، ولا يودون لها إلا كل إذلال . . وكان زعيمها الأميرال كولينى . يعضده الملك هنرى دى نافار « ملك النافار » وهو ابن عم الملك شارل التاسع أيضاً . . !!

* * *

ووصل الدوق إلى حيث ينتظره ، رؤساء الطائفة . . الكهنة. والقساوسة . . والرهبان . . اجتمعوا يتشاورون في أمر البروتستانت . . !!

قال الدوق لرجال الكنيسة :

ــ تعلمون أن الملك ، يعطف على هؤلاء الناس الذين خرجوا على مذهبنا . . وعلى مذهب البابا . . وأنا أعتقد أن من يحيد عن شريعة البابا لا ديانة له . . وإنا لا نستطيع أن نرى الملك يقف في وجوهنا ، يصدنا عن الفتك بهذه الطائفة . . أو ردهم عن خطتهم التي ينتهجون . . !!

لقد وجبت مطاردتهم . . فلتستحثوا الناس على مضايقاتهم . . وعلى التحرش بهم . . !!

فرددوا في صوت واحد :

ــ أجل . . وجبت مطاردتهم . . وإنا بأمرك فاعلون !

وخرج الدوق وهو يقول :

ــ إن موعدنا لقريب . . !!

* * *

. . . . واستأذنت كاترين على ولدها . . . في حجرة العرش . . وقالت له :

ــ أريدك منفرداً . . !

فأذن لجميع من في حضرته بالانصراف . . وخلا المكان إلا من الأم وولدها . .

قالت كاترين :

ــ أيرضيك يا بني ما عليه البلاد من حال سيء . . ؟ ؟

قال : ومتى رأيتني راضياً عن ذلك يا أماه . . ؟ ؟ إنني لأفرق لمنظر الدماء تهدر عبثاً لخلاف تافه بين طائفتين كل منهما تعضد مذهباً . . وتنتصر له .. !

ــ وهلا ترى معي يا شارل أن البلاد أمانة في عنقك . . وإرث وجب عليك حفظه ورعايته حتى تسلمه لخلفائك من بعدك مزدهراً قوياً . . ؟ ؟

قال الملك . . : ومتى رفضت ذلك . . ؟ ؟ إنني من أنصار السلم . . وطالما نشرت الأمر تلو الأمر ، بفض المنازعات ومنع الخصام . . ولكن أعوانك هم الذين أغرقوا في الفساد . . واسترسلوا في خططهم غير هايبين . . مستهترين . .

وثارت نفسه فقال مستطرداً في صرامة :

غداً . . سيعلم الجميع من الحاكم . . أأنا أم هم . . وسوف أزج بهم جميعاً في الباستيل . . وسيعلم الظالمون أي منقلب ينقلبون . . !!

فاصطنعت الأم الماكرة بسمة وقالت :

ـــ أعوانى . . ؟ ؟ إن أعوانى لا ذنب لهم ولا جريرة

قال ـــ وكيف . . ؟ ؟ أولم يقوموا فى الكنائس يحضون الناس على المذابح والثورة . . والتنكيل بالهيكنوت . . إن لكل إنسان عقيدة ومذهباً . . حق له أن يرعاهما . . ويعيش تحت رايتهما . . إنكم أفسدتم الأمن . . وأضررتم بالسلام . . حتى بت أنا الملك مهددا فى قصرى . . ! !

قالت فى هدوء :

ـــ إن الذى يراك الساعة ياشارل يظنك مغضباً على أمك !

هدأ ثائره . . وقال وكأنما قد استخزى :

ـــ عفوا يا أماه . . فما قصدت من هذا شيئاً غير أن هؤلاء القوم كادوا يقتلوننى غيظاً . . ! !

ـــ إنك واهم يا بنى . . . فلم يزل السلام ناشراً رايته . . . والأمن يسود البلاد ، وما جئتك الساعة إلا لأعرض عليك أمرا . . ! !

قال ـــ وما هو . . ؟ ؟

قالت : ما أنا يا بنى من أبطال العصور الوسطى شغوف بالحرب . . طموح إلى المذابح والمعارك . . وإننى لأخشى انفجار بركان الضغينة بين الطائفتين . . فيكون الأمر لا تحمد

عقباه . . وإننى لأرى أن الخصام قد استفحل أمره . . وساءت سبيله ، وليس بد من أن نعمل على التوفيق بين الطائفتين . . أو نعمل على إخماد هذه الروح ، حتى أراك سعيداً يا شارل . . فان من واجبى كأم أن أرعى حقوق أولادى . وأسهر على راحتهم ، وأعمل على إسعادهم . . !

أرى ياشارل أن الهيكنوت كلما أضعفنا شوكتهم فى ناحية ، اشتد أزرهم فى ناحية أخرى . . ولا سبيل لبلوغ السلام إلا بالاتفاق مع زعمائهم . وجعلهم حلفاء للك

قال الملك :

ـــ وما السبيل إلى ذلك ونحن الذين دفعنا بهم إلى عدائنا وما كانوا لنا معادين . . ؟ !

قالت : الأمر سهل . . ! فما ترى فى الأميرال كولينى لو عقدنا له الأمارة على رأس جيش وأرسلناه به إلى هولندا لحماية أتباعه من بطش الدوق دى إلب . . ؟ ؟

قال ـــ إنه يلقى الأمر بالشكر والامتنان . . ولكن أخشى أن يثير علينا ذلك الأسبانيول . ويجر علينا حربهم

قالت : لا يا بنى ، فأنا أعرف كيف أجعل أسبانيا لا تغضب لذلك . . ! وبأبعاد زعيمهم يتفرق جمعهم وتضعف شوكتهم . .

قال ـــ وهى أن الاسبانيول دعونا إلى حرب بأسباب

ذلك . . فانى لأعتقد أن الحروب على الحدود أسلم عاقبة . . وأقل خطرا من الحروب الداخلية . . !

قالت ــ سنعقد لذلك مجلساً نتشاور في شأنه . . . ! . . .

. . . بقى علينا يا شارل أن نعمل على صداقة العضد الأكبر لهم . . وهو الملك هنرى دى نافار . . !

قال ــ هذا الذى دفعناه لعدائنا قهراً عنه . . وما كان يوماً يفكر أن يكون لى خصما . . ! !

قالت : سأجعله يا بنى لك أخاً شقيقاً بعد ما أفسد الخصام ما بينكما . . !

قال : وكيف . . ؟ ؟

قالت : ماذا تقول فيما لو زوجته بأختك مرغريت ! !

انفرجت أساريره . . وتهلل فرحا وقال :

ــ وهل ترضى بذلك مرغريت . . ؟ ؟

قالت : إن أختك طيبة القلب . . كريمة النفس ، يرضيها ما تسعد به ، ولا تتعارض رغباتها ومصالحك يا شارل !!

قال : أماه . . إننى أكاد أجن سرورا لوكان هذا حقيقة . . إننى لأحلم بيوم أرى فيه الهدوء والسكينة والسلام . . ترفرف أعلامها على فرنسا . . ! !

ولشدة سروره ، عاودته النوبة العصبية ، فأغمى عليه . .

ولكنها لم تطل فما لبثت أن فارقته . . !!

قال الملك : انظرى يا أماه كيف أن السرور أثر فى نفسى؟؟

قالت : اطمئن يابنى ، وألق كل متاعبك على كاهل أمك . . واعتمد على أنا أنجيك من عصيب الأمور . . ! !

وإننى لآخذة فى المداولة بشأن هذا الزواج . . !

وهمت بالخروج فاذا بالملك يقول :

ـــ ولكن . . هل ترضى أم هنرى دى نافار بأن تكون مرغريت زوجاً لابنها . . ؟ ؟

ضحكت باستخفاف قائلة :

ـــ إنها تعد هذه المصاهرة شرفاً ، ونخراً على مر الزمن !!

* * *

... ...
... ... ؟ ؟ ! ! ؟ ؟

ـــ مرغريت . . ما بك ساهمة . . ؟ ؟

ربتت على خده ملاطفة . . وانحنت مقبلة جبينه تقول في صوت حنون فيه شيء من التأثر :

ـــ لا شيء يا أميرى . . ! !

قال الدوق : إنى ماعهدتك كهذا اليوم . . تبدين كالمحزونة كأن جديداً يعكر صفاء نفسك . . ! ؟

قالت : لا شيء . . !

وأشاحت بوجهها عنه ، لكى تجفف عبرة .. تجمعت فى جفنها الناعس ..

وتابعها بنظره ــ فرآها تبكى . . !!

قال : أتبكين .. ؟؟

قالت · اخفض صـــوتك .. وهدىء من روعك .. فالأمر بسيط لا يستحق اهتماماً . . !!

ــ ليس بكاؤك لأمر هين . . !

ــ . . . . !؟

ــ ماذا يا مرغريت . . ؟ نبئينى . . !!

قالت مرغريت :

ــ لم تجد أبى ثمناً تدفعه لخصومها لكى تهدىء اضطراب الطوائف . . إلا أنا . . !!

ــ ماذا تقصدين . . ؟؟

ــ لقد اتفقت هى وأخى شارل على زواجى من هنرى دى نافار لقمع المشاغبات .. واستتباب الأمن .. ونشر السلام . . بانضوائه تحت جناحهم بالمصاهرة . . !!

قال وقد كبر في عينه الأمر :

ــ محال . . ولن يكون سلاماً ما هذا ثمنه . . !!

قالت : قضى الأمر يا دوق ، وليس لى أن أعارض أمراً هو فى سبيل التاج ، فصلحة فرنسا يجب أن تقوم على أنقاض قلبى . . وتروى بدمعى . . وإننى لأضحى بدمى . . بفؤادى . . بكل شىء فى سبيل الوطن . . ! !

وارتجف الدوق ، عند ما سمع كلمة « الوطن » من فم مرغريت . . امتزجت بحنان ووطنية . . يغشيهما الألم . . ! !

. . . . وحاول إقناعها فلم يفلح ، فغادرها غاضباً ، يزأر ويزمجر . . وقد أضمر فى نفسه أمراً . . ! !

وبقيت الأميرة حائرة . . يؤنبها ضميرها على تصريحها له خوف بطشه . . فقد كان بيده كل شىء . . وليس للملك مثل ما له من السلطان والنفوذ . . فهذا متربع على عرش المملكة ! والدوق متربع على عرش نفوس الأغلبية . . ! !

ولقد كانت حاله ساعة خروجه لا تنبىء بخير أو سلام . . !

* * *

واضطرمت نيران الحقد والضغينة بين جنبى الدوق دى كيز . . وعقد النية على شر انتقام . . ! !

وجمع رجال الكنيسة . . وراح يقذف بينهم بكلمات من نار . . ويستحثهم على البطش والتنكيل بالهكنوت . . وأول ما يطلبون رأس الأميرال كولينى . . والملك هنرى دى نافار . . ! !

وكان كلما استشاط فى كلامه وغضبه . . امتلأت نفوسهم يقينا . . ثم راحوا يعدون العدة والعديد . . ! !

* * *

ها هو ذا المساء قد نشر جناح الظلام فوق ربوع باريس وهنالك بعض رجال الكنيسة يتجولون فى الشوارع . . ويضعون علامات مخصوصة على منازل البروتستانت . . إنذاراً بوقوع الكارثة

وبينما هؤلاء يقومون بهذه المهمة . . كان الفرسان يشحذون سيوفهم . . ويختبرون خناجرهم . . !

واللوفر . . ! ؟

كان يفتح أبوابه على مصراعيها . . والموسيقى تصدح فى فنائه ، فتملأ الجو سحراً . . والأضواء تتفجر من جوانبه فتكاد تعيد رائعة النهار . . لقوة سطوعها . . ! !

وهاهم أولاء الأمراء البروتستانت ، والزعماء . . يفدون على القصر لحضور حفل زفاف الأميرة مرغريت إلى الملك هنرى دى نافار . . ! !

والكل غارق فى السرور . .

والملك شارل يمنى نفسه بالهدوء الذى بنى دعائمه على لهب ثورة فى قلب أخته وحبيبها . . وبالسلام الذى أقامه على أنقاض

سعادة الحبيبين . . وبالسكينة التى يتخذ لها ثوباً وستاراً من عاصفة فى نفسيهما . .

وكاترين . . تعد ذلك ظفراً ونصراً . . فاليوم ينضوى هنرى دى نافار . . خصمها الأكبر . . وعدوها الألد . . ينضوى تحت لوائها . . وغداً . . ستعقد للأميرال كولينى راية الأمارة على رأس جيش تبعده به إلى هولندا

إذن . . . فقد ضمنوا السلام . .

ولكن . . ولكن . . أما علموا أن هنالك عيناً لا تغفل وسط هذا الليل البهيم . . وأن إنسانها يلتهب غيظاً وتضطرم بين أجفانها نيران الأنتقام الذى يتفجر لهبه بين جنبى صاحبها

تلك العين . . هى عين الحبيب الثائر . . الغيور المنتقم . .

فها هم أولاء أتباع الدوق دى كيز يعدون العدة تحت جنح الظلام الدامس . . ويتربصون إلى حين ينتصف الليل . . ! !

فالخناجر فى المناطق . . والسيوف مشحوذة فى أغمادها . . والغدارات محشوة بالرصاص . . !

والكل فى انتظار أمر يلقى إليه . . ! !

* * *

وانتصف الليل . . ! !

ودقت أجراس الكنائس ، فى صوت حزين دام ، لم يزل

يتحدث به الأبد إلى الأجيال بلسان الصدى . . وكأنما كانت رناتها تؤلف صوتاً ينطق ويقول :

ـ اقتلوهم . . اقتلوهم . . اقتلوهم . . ! !

وكان ذلك إيذاناً ببدء المعركة . .

فما كادت الأجراس تقرع حتى انطلقوا كالسيول فى شوارع باريس ، وخناجرهم مشحذة فى أيديهم تطلب صدراً بروتستانتيا لكى تغمد فيه إلى أجل قصير .. !!

وإلى اللوفر . . ذهب جحفل يريد الأميرال كولينى . . وهنرى دى نافار . . ! !

* * *

ودخلت العروس على زوجها فزعة مروعة تقول :

ـ مولاى . . يجب أن تهرب الساعة . . ! !

نظر إليها مستفهماً يقول :

أهرب . . ؟ ؟ ولم . . ؟ ؟

أنت فى خطر . . !

قال . . ما كنت لأخشى غير أمك وقد اتخذت منها الحيطة

ـ ليست أمى . . وإنما الكاثوليك . . !

ـ ماذا بهم . . ؟

ـ الوقت ثمين . . إنهم يريدون رأسك . . !

فانتفض واقفاً . . ووضع يده على قائم سيفه يقول :
خيانة . . ! !
قالت : ليست كذلك يا مولاى . وإنما الشعب يصخب ويزمجر . . تعال معى . . .
وقادته إلى الشرفة ــ وقالت له . .: انظر . . !!
وكان الشعب يحاصر القصر والكل ينادى بحماسة :
ــ فليمت البروتستانت . . نريد ملك النافار . . اقذفوا به إلينا . . نريد أن نقتله . . ! !
وتراجع الملك هنرى قائلا :
ــ إذن وجب أن ندافع عن أنفسنا فليس للملك أن يهرب
قالت : من العبث يامولاى . . فبمن تدافع أمام هذا السيل الجارف . . ؟؟ ينبغى لك أن تهرب فتنجو بنفسك . . !!
إتبعنى إذن . . !!

وسارت مرغريت من حجرة الى حجرة . . وهو فى أثرها حتى وصلا الى مخدعها . . بودها أن تخفيه فيه ، ظنا منها أنه مكان أمين . ولكنها عرجت على غيره عند ما سمعت الثوار يكسرون الباب الذى بجواره . . وراحت تدور به بين أبهاء القصر وحجراته ، وليست بواجدة مخبأ . . إلى أن انتهى بهما المطاف إلى . . . شرفة الذكرى . ! !

تلك الشرفة التي كانت تجلس فيها الى الدوق دى كيز « حبيبها » سر هذا الهياج العظيم

قالت مرغريت :

الق بنفسك فى اليم . . . واسبح إلى الشاطىء واسرع فى الهرب . . ! !

. . . . . وراح يسبح فى الماء ، وإنه لكذلك ، فاذا ضجة وضوضاء ، وصياح . . ثم إذا بصوت يقول :

« كولينى » لقد وقع الأميرال . . !

وردد الصدى أصواتا في رهبة الليل :

— أذيقوه الموت . . !

فارتعدت فرائص الملك ، وكادت تخونه قواه ، ولكنه ضاعف جهده . حتى وصل إلى الشاطىء . . وإذا بصوت يصل إلى سمعه :

هذا بروتستانتى هارب . ! !

لقد أحدق به الخطر . .

فها هو ذا فارس ينحدر إليه وفي يده خنجره . . وتحته جواد أدهم . . يسابق به الريح . .

ولكنه تلقاه بشفرة سيفه فأرداه قتيلا قبل أن يمسه بسوء وامتطى صهوة الجواد . . وولى الأدبار تحت جنح الظلام . !

ومر الليـل ، وقد أتى الكاثوليك على جميع البروتستانت الذين فى باريس وضواحيها ، من أمراء إلى نساء وأطفال .

وأشرقت شمس ٢٣ أغسطس ١٥٧٢ فبدل أن تلق بأشعتها على الارض نشرت شعورها على جثث القتـلى ، تريد أن تنسج من خيوطها أكفانا ، تلفها بها ، فانغمست أطرافها فى أنهار الدماء . . فتشربت حمرتها القانية وأودعتها الشفق عندما غربت حزينة . لـكى يسكبه الشفق فى جفن الأفق فى غروب هذا اليوم من كل عام حزنا وحدادا . . وإنذارا بالويل و الفجائع فلله حب كان هذا انتقامه . . ! !

ملحوظة : هذه القصة تاريخيـة حقيقية الوقائع . . ولـكنها موضوعة غير مترجمة .





... لو انك أرسلت إلى المشرق نظرة تحقيق وتدقيق في صبيحة ذلك اليوم ، لرأيت الشفق يسكب في جفن الأفق قطرات من دم قان . . تسيل كالدمع فتصبغ أديم الأرض . . !

لم تكن الشمس قد أشرقت ، ولم تكن أسلاكها الذهبية قد انبعثت من وراء الحجب ، لتكشف للعالم معالم الحياة جلية ولم يكن شيء من هذا قبل أن يغيم المشرق .. وتظلله سحابة داكنة سوداء . . . إن هي إلا نذير شر . . سيجلل الأرض في هذا اليوم المشئوم

وطلعت الشمس ولكنها لم تبسط نورها ككل يوم .. وإنما من خلف السحابة الدكناء ، أرسلت أشعة هزيلة تضرب إلى الحمرة القانية . . كأنها مزيج من الدم والضوء . . تسقط على بعض مواضع من وجه البسيطة ، فتكسوها بدل الاشراق

والبهجة ، وجوماً وحزناً . . ! !

ما هذه الحمرة القانية التى تصبغ المشرق وأشعة الشمس . .
إلا بقية من دماء الأبرياء ، التى أهريقت من عهد بعيد . . تعود
لتذكر العالم بهول هذا اليوم العصيب . . منذ القدم . . ! !

إن عقارب الساعة تدور بطيئة ، فى غير اضطراب . .
تحدد البقية الباقية من آجال شباب غض لم يكن قد نهل من بهجة
الحياة إلا قليلا . . شباب هم فخر وادى النيل . . ونضرة أبنائه . . ! !

إن الهول ليسيطر على النفوس . . والفزع يعم القلوب . .
فما من نفس إلا وتضطرب فرقاً ورعباً بين جنبى صاحبها . .
وما من قلب إلا ويخفق ذعراً في حنايا صدر حامله .

فها هى ذى « المشنقة » تعد أحبالها . . وتختبر اسطواناتها
لكى تبت فى أمر بضعة رجال . . وتقطع بينهم وبين الحياة
الأسباب . . فتفصل بين الرأس والبدن . . ! !

وها هى ذى الساعة الرهيبة قد دنت . . فقد ناحت ناعية
الزمن تعلن السابعة . .

وها هى ذى شرذمة من الجند . . تتقدم من حجرة في
سجن الاستئناف . . وكأنهم زبانية الجحيم . . !

إن الباب ليفتح . . فكأن في صريره نبرة من صوت القدر
ينبىء من خلفه . . بانقضاء العمر . . ! !

وامتدت أيدى الزبانية، إلى زهرة.. من طاقة.. هى فى مقتبل الحياة . . نضرة غضة . . لم تنعم ببرد الطل الذى تساقط عند انبلاج الفجر . . ولم تتنفس العطر الذى ادخرته عند المساء . .

وأوصد البـاب على بقية الصحب ، ظلوا ينتظرون دنو الأجل . . وتحقيق المصير . .

وذهب الزبانية بمن اقتادوا ، إلى حيث ألبسوه لباس الموت وساروا به إلى حيث يلقى حتفه . .

وكان العلم الأسود يخفق على سراى المحافظة ينشر فى طياته بين الهواء . . وكأنما يذيع خبر المصيبة فى صمت وحزن . . ! !

كان الفتى « عبد الحميد افندى عنايت » وكان فتياً . . تمتلىء نفسه يقيناً . . وروحه يطير محلقاً فى سماء الوطنية . . وكان كالزهرة فى غار العصر . . ما كادت تذيع عطرها حتى طوحت بها الريح . . فى مهاوى الموت . .

وتقدم الشاب إلى حيث تقوم المشنقة.. التى ستطفىء شعاع الأمل من عينيه . . ونور الحياة من نفسه . . ولم يكن يفكر فى شىء . . ولم يكن مضطرباً . . فقد كانت قدمه ثابتة . . وكان حافظاً لقواه مالكا لحواسه وعواطفه . . كأنما هو قادم على لا شىء . . ! !

وبصوت خال من كل اضطراب . . لا تخالج نبراته رنة

الخوف .. ولا اكتراث بالهول الذى سيحل به بعد دقائق .. قال ..

— « أنا لا يهمنى شىء .. وقد قمت بعملى خير قيام .. أنا لا يهمنى الاعدام ، إنا لله وإنا اليه راجعون .. رب ادخلنى جنة النعيم »

ثم هوى .. وفاضت روحه بعد ثلاث دقائق .. وتلاشى من الوجود شاب جرىء سجل بدمه فخر بلاده .. !!

* * *

ولم تقف عقارب الساعة عن دورانها ، بعد ما وقفت حركة الحياة بين جنبي هذا الذى ذهب ضحية .. وإنما أخذت تدور لتحدد عمر آخر ، ما هو إلا كسابقه ..

ومرت أربعون دقيقة كانت هى البقية الباقية له دون صاحبه .. وكانت هى كل ما حباه به القدر من طول العمر .. أكثر من رفيقه .. وإن هى إلا برهة حتى أقدم الجند بشاب يضطرب أمام منجل الموت الذى يدنو من عنقه .. ويهتز تحت وقع ضربات معول الفناء يهد في هيكل حياته هداً . وكان ينظر للحياة بعين الراحل لم ينقع غلته .. وهو مقبل على قفر مجدب .. ولم ينعم ، وقد اقتادوه قسراً عنه إلى حيث لا يدرى أنعيم أم جحيم ..

وكأنما فى نظراته نهم ، يريد أن يلتهم كل ما فى الحياة من لذة ونضارة ، دفعة واحدة .. يروعه شبح الموت .. ويغريه حب البقاء .. فيذهب ذاهلا مضطرباً كالعصفور الذبيح .. !!

ها هو ذا ماضيه يعود إلى خياله .. حافلا بالمجد والجاه .. وبالعظمة والحياة الحق .... فتحدرت دمعة على خده .. هى وداع لكل شيء ..

وداع لشباب حافل بالمجد والاقدام ..

وداع لحياة زاهرة نضرة .. !!

وداع لأخت وحيدة ، بفقده ستفقد كل شيء .. وكل نصير .. !!

وسمع الاستاذ شفيق منصور حكم الاعدام يتلى على سمعه .. وهو صامت يضطرب .. ثم سئل عما يطلب .. فلم يجب !!

ولما أحس بحبل المشنقة يطوق عنقه قال :

« يا حضرة الضابط ، عاوز أشوف أهلى .. يا باشا اعمل معروف عاوز أشوف أختى .. أنا في عرضكم .. !! »

ولبث يبكى حتى سقط .. ومات بعد سبع دقائق .. !

* * *

ومرت أربعون دقيقة ، حلق أثناءها طائر الموت على رأس

شيخ ودع من سنى الغمر جلها .. ترك زوجه وأولاده .. وأمه .. يبكون فقده .. وما إن شعر بحبل الموت يلف على رقبته حتى أخذ يقول بعض ما في نفسه . وهو شديد العزم ، رابط الجأش ..

وسقط وتوفى بعد سبع دقائق ..

ذلك الرجل هو المرحوم .. ابراهيم افندى موسى ..!!

* * *

ومرت فترة الزمن ، تجر الدقائق بعضها بعضاً .. تقطع بمرورها البقية الباقية من عمر الحر الغيور ، على افندى ابراهيم محمد .. إلى أن اكتملت الأربعون دقيقة ..

وقال الرجل عند ما شعر بحبل المشنقة يطوق عنقه .. بعض ما فى نفسه ..

ثم سئل إن كان عنده ما يقوله بعد ذلك فأجاب فى هدوء :

« وهوه بعد المشنقة فيه شيء ..؟؟ »

وكرر الشهادة .. وهوى هادئاً .. ولم يكن مضطرباً وتوفى بعد عشر دقائق

* * *

وجيء براغب حسن ... وكان مضطرباً ، وكلامه مكرراً

مما يدل على الذهول الذى استولى عليه . . . وتوفي بعد خمس دقائق وثلاثين ثانية . . !

* * *

ولما جيء بمحمود راشد افندى قال كثيراً . . . وكرر الشهادة ، ونفذ فيه الحكم . . وتوفي بعد ست دقائق

وقد أظهر شجاعة فائقة . . وكان حافظاً لقواه . . ولم تفارقه ظواهر الابتسام . . !

* * *

ولما جيء بمحمود افندى احمد اسماعيل . . قال :

ــ أنا قوى وشديد . . وليه العذاب بالأربطة ؟ أنا يمكننى أطلع المشنقة بنفسي ، فلا داعي للعذاب . . فين المشنقة دى . . ؟؟ اتفضلوا . . أنا دمى على رأس الذى ظلمنى .. وأنا وجميع أفراد عائلتى ووالدى وابنى .. فداء لمصر . . فليسقط الظلم أينما كان . . الحمد لله . . أنا راض وشاكر . . أشهد أن لا إله إلا الله . . . وأن محمداً رسول الله . .

أشهد أننى مصرى . . وأننى وطنى . . وأننى برىء

ونفذ فيه الحكم . . ومات بعد خمس دقائق . . »

وقد أبدى محمود افندى هذا شجاعة خارقة للعادة . . وكان ثابتاً بشكل يدعو إلى الاعجاب الشديد ولم يظهر عليه أدنى أثر للخوف من الاعدام ..!

وقد نوهت الصحف البريطانية بذلك . . !!

* * *

وما آذنت الساعة الثانية عشرة ظهراً حتى كانت صفحة هؤلاء التعساء . الذين صادفتهم قسوة أغسطس ، وعصفت بهم نحوسته . . قد طويت فى سجل الأبد . . تحفظ فى عرضها تاريخاً مجيداً لهؤلاء الأمجاد ، وأثراً سيئاً لهذا اليوم المشئوم . . . والشهر الأسود . . !! [1]

---

(١) مصدر هذه الاقوال البلاغ الرسمى الذى نشرته المحافظة فى مساء ذلك اليوم يتضمن أقوال المعدومين الاخيرة . . وقد أعدموا بتهمة الاعتداء على سردار الجيش وكان بريطانيا . . وكانت الجناية مدبرة لاضعاف مركز الوزارة الوفدية برئاسة سعد زغلول باشا لكى تستطيع القوات الانجليزية نيل مآربها إجبارياً وقد أسفرت طلباتها عن .

سحب القوات المصرية من السودان

ودفع نصف مليون جنيه لأرملة السردار

وإعدام هؤلاء السبعة الذين جىء بهم متهمين بطريقة ملفقة . . .



غامت السماء ، واحتجبت الشمس خلف سحابة صيف ثلجية .. فكانت كالغلالة على وجه العروس ، تغطيه ولا تحجب من أشعة حسنه شيئاً

وأقبلت فتاة فى عامها الثامن تسعى — فى مرح الطفولة الذاهبة — إلى مجلس أبيها الذى اتخذه أمام الدار ، وبين يديه طفلته الصغيرة التى قضت بين ربوع الدنيا ثلاثة أربعة . يداعبها ويسامرها .. ويأخذ منها ليعطيها .. يأخذ من رقتها وخفتها .. ليعطيها من عطفه وحنانه ، وبجواره ولده ، جلس ليسمع دون أن يشترك فى هذا الأخذ .. وهذا العطاء .. !

وما كان الوالد ليحس بدنو ابنته من مجلسه حتى نظر إليها مرسلا من قلبه حبه وحنانه، مرتسمين على شفتيه ، مصورين بسمة

فيها كل معنى من معانى الأبوة الحقة . . وبسط إليها يداً ليتقبلها قائلا :

ـــ أهلا بك يا عزيزة . . !

فانحدرت إليه . . يدفعها شعور رقيق . . شعور الأبنة نحو أبيها ، وهل هنالك أدق منه . ، ؟ وإحساس حبها له . . وما وجد أشد منه وأقوى . . إنه إحساس يسرى فى الدم ، فيلهب العواطف . . !

ونهض الرجل . ، فنهض بنهوضه ولده ، وسار الأب فى يمناه صغيرته . . وفى يسراه فتاته ، ومن خلفه الابن فى أدب واحتشام . . !

وأخذ الجميع فى ارتقاء الدرج . . !

قلب . . وحباته . . يتحرك فيتحركون بحركته ، ويسكنون بسكونه . . !

هو سر الحياة فى نفوسهم . . وليست الحياة التى يقابلها فى المقارنة الموت . . وإنما الحياة الحق . . الحياة فى نضرتها وجمالها . . الحياة المعنوية . . التى لا يشعر فيها المرء بعناء إذ أن متاعبه ملقاة على عاتق غيره . .

وأدى بهم المسير إلى البهو الذى يفصل الحجرات ، حيث كانت الأم جالسة فى انتظار حلول الظهر لتؤدى فريضة الصلاة

قالت الأم : أحان وقت الظهر . . ؟

فأجاب الوالد : وهاك عزيزتنا قد انتهت من الدرس دليلا على ذلك . .

قال ذلك وجلس إلى جانبها ، ومن أمامهما اتخذ الأبناء كل مكانه حيث راق له . . وفي يد الرجل مسبحة يذكر بها ربه ، وفي يده الأخرى عصا لم يزل قابضاً عليها . .

وأحس الرجل بنفسه تضطرب . . وبقلبه تتدارك دقاته .. فقال لزوجه . . !

وأحس دواراً فأعطني قليلا من (الأثير)

وقامت على الفور ، فما كادت تخطو خطوة حتى سمعت ولدها يقول :

ـ أبي . . أبي . . لم تميل هكذا . . ؟ ؟

وعادت على أعقابها ، فاذا الرجل مائل بكاهله إلى الامام . . كأنما هو يسجد . . يمناه تحت جبينه . .

قلبته .. فانتفض انتفاضتين . . وهو يتألم . . دون أن يتكلم ثم فارق الروح الجسد . . ففقد الحياة

راعها الأمر . . !

فأعولت واستصرخت . .

ورأى الأبناء الأم باكية . . فراحو يقاسمونها البكاء . .

وكلهم صغار لا يفهمون من أمر أبيهم شيئا

ما علم الأبناء ساعتئذ أن الموت قد رفرف الساعة ، واختطف من بينهم أباهم عماد بيتهم .. ونور حياتهم ..

وسمع الصحب والجيران العويل والصراخ .. فأقبلوا فزعين .. فاذا بهم يرون الخطب الجلل .. !

رأوا الدار قد فقدت عمادها ..

والأبناء قد ثكلوا أباهم .!

والزوجة .. تبكى أسدها ، فقد أدركه الفناء .. !

إنها لـكارثة ..

لم يبلغ أكبر الأبناء العاشرة من سنى العمر ــ فانه لحدث صغير ، وللأسرة عبء .. ولابد له من أن يحمله ..

وراح الجميع يتشاورون .. !

واختلفوا فى الأمر .. !!

قال كبيرهم مشيراً إلى الغلام الذى يبكى فى أقصى المكان .

ما بالـكم قد اختلفتم . وما أخذتم برأى هذا الغلام .. !؟

قالوا : إنه صغير .. !

قال : ولـكن الأمر يعنيه فهو خاص به .. !

وناداه .. فلبى النداء .. !!

وقف الفتى مضطربا .. وكأنما قد عراه ذهول .. وألقى

الرجل عليه سؤالا . : ما كاد يصل إلى أذنيه حتى نظر إليه ولم يتكلم . . وإنما أجابت عنه الدموع

.. ..

.. .. ومن هذه الساعة عرف الصبى مرارة العيش . . .. وذل اليتم ، فقد انتقل العبء إلى كاهله ولم يزل الغلام الصغير . .

وابتدأت الحياة تعرض عليه ألوان الشقاء فى صور شتى .. وتلهبه بسياط لأوائها بأساليب كثيرة وتنكرت له الأيام ، فلم يعد يرى منها ابتساما . . !!

ذاك الراحل الكريم . . هو أبى . . !

وأما الغلام اليتيم . . فأنا .. !!

وأما ذلك اليوم المشؤوم .. فيوم ٢٣ أغسطس ١٩٢٦

رحمك الله يا أبى . .

وسامحك الرحمن يا أمى

فلولا كما ما جئت العالم ، ولما تحملت أعباء الحياة . . ففى لحظة من لحظات اللذة الفانية ، اتفقتما على شقائى سوياً . .

فكلا كما مذنب . .

وكلا كما أنانى . . !!



« الماضى والحاضر »

حديث الألم . . كهمس الحلم ، وليس صوت الأبد . . إلا جفاء الزبد . . عند ما تتناثر الفقاقيع . . وتتبدد . . ! !

* * *

. . . . . . سحرنى الضوء ينحـدر . . يصبغ الأرض وأطراف الشجر . . كنثار الفضة . . ثم المروج الخضراء في ثياب الجمال والجلال . . روعة . . ووداعة . . ! !

. . ووقفت بى القدم ، حيث الطراوة لينة عذبة . تهب مترقرقة ، فى نسيم النيل البليل ، تتغلغل في النفس . . والموج يصفق حفيفاً ، والزبد يرغو خفيفاً . . ثم يتناثر على وجه الماء طافياً . . ولا يلبث أن يتلاشى . . ويصير لا شىء . . ! !

أرهفت السمع . . فاذا لهذا كله نغم . . ثم إذا بهذا النغم ،

يتفتق عن كلم . . هو همس أشبه بصوت القدر . . يتحدث بلا حذر . . !!

ـ مجد النيل الجميل . . تالد خالد ، بناه الأبناء القدماء . . وإنه ليزهو فخارا بأبنائه البكر . . فقد كانوا أسمى البشر . . في حسن الفكر وبعد النظر . . يخرجون أروع الصور . . ويخلفون أبدع الأثر . . !!

وكثيراً ما تحدث النيل في زهو إلى الزمان :

انظر أيها الزمان الغيور ، كيف تمر الدهور . . وربوعي تزدهر ، في جمال نضر . . والفن يملأ الوادي ، بآثار أولادي فالعبقرية وليدة الذوق الفرعوني . . !!

انظر أيها الزمان . . هذا الملك في أبهة الجلال ، والكمال . . فهذا ملك ظافر . . وذاك فاتح قاهر . . !!

انظر . . انظر . . إن أبناء النيل ، لا يعرفون الهزيمة !

* * *

وكان الزمان يسمع في صمت . . ولا يجيب . . !!

وتوالت الأيام . .

والنيل يرفل في حلل الفخار . . والنصر . . إلى أن انقضى ملك الفراعين . . وتتابعت على مصر ووادي النيل الهزائم . . ودخله الفاتحون الظافرون ، وأهلكت أبناءه الدواهي . .

ولم يعد الزمان يسمع له صوتاً . . فقد ظل دهراً لا يتكلم ولا يفاخر .. فقال الزمان بصوت جهورى .. فيه لون من السخرية والتشفى :

ــ أيها النيل الفخور . . أما كنت تعلم أن الكمال ، نذير الزوال . . وأن المجد ، لا يقترن بالخلد . . فاليوم لك ، وغداً عليك . . ! !

قال النيل فى نبرة حزينة :

ــ لقد غرنى توالى النصر .. وطول الأمد .. ! !

قال الزمان يرتل فى مزمار الأبد :

ــ وإن توالى النصر . فلابد من القهر .. وإن طال الأمد فالزمان أطول . . فما كان لك أن تختال ، بما هو أشبه . . بالظلال . . ! !

لم يتكلم النيل . .

ولكنه صمت فى حزن وألم ، يندب ماضيه ، ويبكى ما هو فيه .. من مسكنة وذلة .. !!

فها هو ذا الزمان يتهكم ، بعد ما كان لا يجرؤ أن يتكلم

وها هى ذى الأمم .. لحرمة أرضه تقتحم .. !!

ولم ير بعد أبنائه الفراعين ، أحد بنيه قام لنصرته إلا وانكسر .. وتردى في أعمق الحفر . . !!

وكانت مصر . . ثكلى حزينة . . إلا أنها كانت لا تنفك تواسى النيل في مصابه . . وتمنيه بما فى نفوس الناشئة من أبنائها من همة ، ستزول بفضلها الغمة ..!!

فها هو ذا شعاع الحرية ينبثق ، فى ظلام الغسق .. وها هو ذا الضوء .. ضوء الحقيقة والوطنية ، يسطع فى نفس مصطفى .. مصطفى الذى مالبث أن عصفت به ريح المنون فاقتطفته كالزهرة فى أوائل الربيع .. وكان في بدء العمر . . !!

وقالت مصر تواسى النيل :

ولئن فقدت مصطفى اليوم . . فغداً سترى العجب ، مما سيسرك ، ويقر عينك ، بخليفته فريد . . ! !

يا أبت . . يا أبت . . ! !

إن أبنائى عرفوا اليوم معنى الحرية . . وتذوقوا سلاف الرحيق ، من مجد أجدادهم القدماء . . ! !

ولم تزل تتحدث عن فريد الجديد . . حتى دوى صوت القدر ، ينعى طيب الذكر والأثر .. فأعول النيل .. يبكى ولده .!!

وحزنت مصر . . والتفت في أثواب الحداد .. ولكنها كبتت جماح نفسها .. وراحت ترفه عن أبيها النيل ..

ألا تدرى يا أبا الوادى، أن في أولادى .. نجما هو الشهاب إن سطع .. والسيف إذا اندفع .. وراء الحق ، فلا يلبث أن يعيده !؟

قال النيل فى صوت حزين خافت يضطرب :

— ومن هو .. ؟ وهل بعد هذين ؟؟.. مصطفى الذى هو النجم الأول فى هـذا العصر .. وفريد الذى ضحى بالنفس ، والنفيس .. ومات دون أن يحفل به أبناء وطنه .. فهل أصدق أن من بينهم من سأعتمد على صدق وطنيته ، بعد ما تهاونوا فى أمر هذا الوليد الراحل .. !!

قالت مصر :

— إن سعدا من أعنى يا أبتاه . . !

اهتز النيل لهذا الذكر الجميل . كأنما اعترته نشوة . . وقال وهو يبتسم :

— إن اسمه فأل . . !

فرقصت الأم ، وراحت تتغنى بجمال الابن ، وبقدرته . . وبنبوغه . . مما جعل النيل يكفكف أدمعه . . ويجرى مرتلا في مزمار موجه . . نشيد الأمل . . !!

وما إن رأت الأم منه ذلك ، حتى هتفت فى أبنائها الباقين :

— التفوا حوله ، فهو لسانكم الناطق ، وسيفكم القاطع . . !

وتقلد الرجل الزعامة ، فكان لها أقوى دعامه ، ووقف من القوم ، مكان القائد ، فكان للحق نعم الرائد . . . . وكان ما أقوى عزيمته ، وأمضى عزمه . . . كان النبراس الهادى ، لأبناء الوادى . . !!

لقد تحمل آلام النفى ، وعنت عناد العدو . . ولقى الصعاب باسماً . . راسخ القدم ، ثابت العزيمة . .

كان يجد فى جهاده لذة ، وفى جلاده سعادة . . !

لقد أغرم بالدفاع عن بيضة الحق ، والذود عن قداسة الحرية ، فصمد للعدو كالطود لا يتزعزع . . ولا تخور قواه ، أمام وعيده وتهديده بالهول أن تمادى . . ووعده إياه بالنعيم إن تخلى . .

وما كان الغاصب ليعلم ، إن فى تخليه شقاء لنفسه . . . وفى ثباته على عزمه وعقيدته ، سعادة لا تدانيها سعادة ؟ !

ومرت الأيام . . والابن في جهاده وجلاده ، حتى ضاق به الغاصب ذرعاً ، فطوح به من أمامه . . وأقصاه عن أرض الوطن المقدس . . ! !

قالت مصر تهنىء النيل :

ــ انظر يا أبت ، كيف يتحمل هذا الوليد ، فى سبيل مجدك . . وإعادة حريتك . . ؟ !

ها هو ذا لا يبالى ، بصروف الليالى . . ولا يروعه الهول ، مما لعدوه من الحول والطول . . !!

ها هو ذا يتحمل النفى ، ويقبل عليه فى سرور ، دون أن يخالج نفسه شعور الضعف ، بالعدول عن رأيه . . !

وظلت مصر والنيل ، يترنمان بنبل عقيدته ، وجمال فكره ..
وما لصوت زئيره في منفاه، من هول يهز قلب الغاصب فى حنايا أضلعه . . رعباً وفرقا . . ! !

وحرك زئير الأسد السجين ، النخوة والوطنية فى نفوس مواطنيه ، فثاروا يرجون عودة القائد ، ورجوع الزعيم . . ! !

لقد أخطأ العدو عند ما ظن أنه أبعد الزعيم عن وطنه ، فأمن خطره ، إنه وإن يكن أبعد الجسد ، فلن يستطيع نفى الروح . . وإبعاده . . !

لقد أذاع فى الناس رسالته . . ونفث فيهم عقيدته . . وما للصوت أن يحبس ، وما للعقيدة أن تحارب . . ! !

ها هو ذا يعود برغم العدو الذى أقصاه . . !

وسر النيل . . وراح يترنم :

عد إلى ربوعى يا بنى ، فما أحب إلى من أنفاسك تعطر هواء الوادى بأريج حب الوطن ، وقداسة الحرية . . ! !

عد سالماً . . عد سالماً . . لمن يرجو سلامتك إلى الأبد

وبلغ الرجل أوج عظمته ، وتعلقت به الآمال . . وصار محل عناية كل نفس . . . فقد سار إلى حيث القمة . . . وها هو ذا يكاد يضع قدمه على الرأس .. فيصيب كبد الأمل . . ! !

إن مصر ترقص طرباً بوليدها . . . والنيل يسهر ليله . .

ويقوم نهاره .. راعياً إياه ...

وكان يوماً عبوساً قمطريراً .. قد له الدهر من ظلام الليل ثوباً ، فسربل به شمسه ، وحجب دراريه ، فقد انطفأ فيه شعاع الحياة من نفس الزعيم ...

كان ذلك اليوم ، يوم ٢٣ أغسطس عام ١٩٢٧ ، فأعول النيل وفاضت دموعه دامية على الجانبين .. !

وراحت مصر تولول حزناً عليه ... !

لبس الأب الثاكل ، والأم الحزينة ، وأبناء الوادي جميعاً .. أثواب الحداد ...

وزاد الجميع حزناً أن سمعوا صوت الزمان يردد في تهكم بعد حين :

توفى سعـــد وانقضت الزعامه
وأعيى الأمر من قاموا مقامه
وقد ضل السفين بهم فحاروا
ولن يصلوا إلى بر السلامه



إليك يا من أحببتك ، ولا مطمع
لى عندك ، إلا أن أحبك

حداء قافلة الأيام . . !

ونشيد الماضى . . ! !

وأغانى القدماء . . .

وأصوات الأجيال الفانية ، يهمس بهـــا الأبد . . أمام الشمس التى تجر أذيال ثوبها اللازوردى ، من على وجه الأديم الأغبر ، بعد أن دنت وقبلت ثغره ، قبلة الوداع . . وتغلغلت بين أستار الغسق . . شاحبة مصفرة . . ! !

* * *

أنات الريح . . !

وشكاة الطير . .

ودموع الشفق . . فى جفن الأفق . . دامية قانية . . تسيل

فتبلل الأرض .. حزنا على ذكاء التي توارت .. وفي أثرها النور..!!

الكون في يقظته .. يودع كوكب النور.. ويستقبل جحافل الديجور.. وأملاك الصمت.. والسكون..!!

وكأن نفس حمدى مأخوذة بهذا كله .. هذا الانقلاب الكونى .. الانقلاب الذى يحدث أبداً.. ولكنه لا يدرى لم لم يرعه هذا إلا اليوم..؟؟ فانه ليشعر من الأعماق بحزن دخيل يمزق أوصال نفسه.. ويذيب حبات قلبه..!!

وكان يرقب المعركة التى دارت رحاها، بين جيشى الظلام والنور، حتى إذا ما تمت الغلبة لليل.. وتبوأ عرش الكون، وأمسك بصولجان الوجود، سالت على خد الفتى أدمعه..!

لم الدمع يتدفق..؟

والحزن لا يترفق..؟؟

لا شيء.. لا شيء، غير أنه يشعر بحاجة ملحة تدفعه إلى ذلك كله..!!

فها هو ذا الملل يسود نفسه، فانه لا يكاد يستقر فى مكان حتى يضيق به، فينزع إلى غيره..!!

من مقعد إلى مقعد..

ومن حجرة إلى حجرة..!

ومن نافذة إلى أخرى . . فكأنه سجين البيت من عشرات السنين . .

ها هو ذا قلبه يغوص من أعماق صدره . . وكأن بين أضـــلاعه حملا ثقيلا ، يضغط على الشعب الهوائية ، فيكاد لا يستطيع التنفس . .

الظلام ناشر خيمته . .

والسكون سائدة رهبته . . !

ونفس الفتى حيرى مضطربة . : حائمة هائمة ، بين جنبيه . . وليس يدرى لذلك من سبب ، ولا يعلم لهذا الأمر من تعليل . . ! !

وازداد به الضيق ، فلم ير بدأ من مغادرة البيت طلباً للهدوء . . وإلى الفضاء يمم وجهه . . ! !

. . . . الفضاء الرحيب ضيق على سعته . . والأضواء التى تنبعث من المصابيح الكهربائية تكاد تغشيها سحابة من الظلام الكثيف . . وكأن أشعتها لا تنفذ وسط هذه الحلكة القاتمة . . وأين الحلكة القاتمة . . والظلام المدلهم . . إلا على عينيه . . ؟ ؟

وسارت قدمه الطائشة . . ولم يزل قلبه فى خفوق . . ولم تزل نفسه حيرى يسربلها زداء من الخوف . . كأن أمراً عظيما ينتظره . . ويترقبه . . ! !

ترى ما الخبر . . ؟ ؟

وما عساه بنفسى قد حل . . ؟

أى شيء يخبئه لى القدر . . ؟ ؟ ؟

بهذا كان حمدى يخاطب نفسه . . وإذا بعينه تختلج . . فعلم بأن هنالك كارثة ولا ريب . . ومصيبة هائلة سوف تحل به ولا منجاة منها . . ! !

وفجأة وقف حمدى . . فقد وجد نفسه أمام بيت أحد أقربائه ، كثيرا ما عاودته الرغبة فى زيارته منذ أيام . ولكنه كان يتحايل ويتغافل . . ويعد ويماطل ، بينه وبين نفسه . . فقادته إليه قدمه دون وعيه . . وبغير إرادة منه . . !

ولج الباب ، وإنه لبين حالات متباينة . . انقباض وانشراح . . هدوء وثورة . .

... ...

... ... وكانت الحجرة خالية إلا من حمدى وسلمى . .

وتململت الفتاة فى مقعدها . . وكأن بنفسها مللا . . وكأنما تحبس شيئاً تريد أن تفضى به لحمدى ، ولكنها تخاف عاقبته . . وتخشى من وقعه على نفسه . . إلا أن المرأة شغوف بأن ترى الرجل يتحطم أمامها . . سواء أكان من أجلها ، أم من أجل

غيرها من بنات جنسها .. شغوف بالخوض فى حديث الحب وغماره .. إذ هو في حياتها كل شيء ..!

وكانت الفتاة فى صراع بينها وبين نفسها .. بين القول والكتمان .. وكان الصمت يسود جو الحجرة ..!!

ورفعت سلمى رأسها ونظرت لحمدى وعلى شفتيها ابتسامة غامضة .. وفى صوت يبدو فيه التردد قالت :

ــ أما علمت ..؟؟

وأحس حمدى كأن الصاعقة تدنو منه .. وقال وهو في شبه اضطراب :

ــ بماذا ..؟

ــ بليلى ..!

خفق قلبه خفقة حزينة ، وتداركت دقاته ، وتصاعد الدم إلى رأسه .. وقال فى تلهف :

ــ وماذا لدى ليلى ..؟؟

ــ غداً ستباع ..!

وأرسلت ضحكة فى سكون الغرفة .. وقال حمدى مبهوتاً ..

ــ ستباع ..؟!

ــ أجل :.! بلغتك يا شاعرى العزيز ، فكثيراً ماسمعتك تنعت الفتيات المصريات ، بأنهن كالسوائم ، يبعن دون إرادتهن

لمن لم يرغبه . . !

اصفر وجهه . . واضطربت شفتاه . . وقال :

ومن المشترى يا سلمى . . ؟

قالت ـــ الأستاذ مجدى . . !

أخذ حمدى يحقق البصر . . ويدقق النظر فى فضاء الحجرة وكأنه لا يرى شيئاً وقال في نبرة حزينة :

ـــ أعاد الكرة ، ولم يرض بأن تفلت منه هذه الصفقة..؟

قالت ـــ أجل . . !

وصمت حمدى برهة . . وكأن شـــغاف قلبه تتمزق . . وكأنما بنفسه خنجر يقطع أوصالها . . ودارت به الدنيا . . فاذا به يضحك فجأة . . !!

صوت خرج من فمه ، أشبه بالضحك . . ولكن . . من يدرى . . ؟ ؟

لعله أراد أن يصرخ فخانه صوته . . أو استخزى . . ؟ !

أو لعل لوثة أصابته لساعته . . فضحك من بلوائه . . !

لا . . لا . . ليس هذا ولا ذاك . . ! فان الصدمة القاسية تحول الادراك إلى ضده . . والاحساس إلى نقيضه . . !

وأى شىء أشد من ذلك وأقسى . . ؟ ؟

آماله تتقوض . . وصروحه تنهار . . ونبراسه يختنق . . وضوؤه يخبو . . ! !

ألا ما أظلم الحياة فى عينيه . . وما أشق نفسه بين دياجيرها الحالكة . . !!

***

قالت سلمى وقد آلمها ما رأته . . وركضت أمام عينيها صور انبعثت وكانت كامنة . . أحزنها مرآها . . !!

ــ دع عنك الألم . . واسل . . !!

قال ــ أأدع عنى الألم . . وأسلو . . ؟؟

قالت ــ أجل . .

قال ــ سأفعل . . !

واعتمد بيده رأسه . . وراح يهيم فى أودية الظلام . . يتخبط بين الأوهام . . ثم رفع رأسه قائلا :

ــ قول تنطقون به أيها الناس . . ويخيل إلى أنكم ما أحسستم الحب . . ولا عرفتموه . . !!

وهنا أرسلت الفتاة ضحكة ماجنة . . تقطر دماً . . وتسيل حزناً . . وقالت تردد قوله :

ـ وكأنكم ما أحسستم الحب . . ولا عرفتموه . . !!

فنظر إليها حمدى . . وقد استشف من خلال صوتها ألماً مكبوتاً . . ومن نبراتها نفساً تذوب . . !

وقالت الفتاة :

ـــ على المرء أن يكون شجاعاً . . وليس من الشجاعة ياصديق أن تحب من لاتحبك . .

قال ـــ وهل ذنبي أنني لم أكن شجاعاً . . فأنتزع قلبي من بين جنبي وألقي به في اليم . . ؟ ؟

قالت ـــ لقد ألقيته في اليم رغا زبده . . وتلاطم موجه . . ولكنك تبعته فكان نصيبك الغرق . . !

ـــ خير للمرء ياسلمى أن يحيا بقلبه ، بدل أن يحيا بعقله . . فما الحياة إلا حياة القلب . . وهل ربيع القلب في غير جنان الحب . . ؟ ؟

قالت ـــ كان من واجبك أن تنقذه فتنجو ! !

قال حمدى وقد رفع صوته في نبرة أليمة :

ـــ وهل يعرف الحب واجباً غير التضحية يا سلمى . . ؟ ؟

قالت الفتاة وقد ثار ثائرها واهتاجت في شبه غضب :

ـــ عند من يستحق التضحية تحلو وتلذ . . !

ـــ ومن هو ذا . . ؟

قالت في مرارة :

ـــ من يهب القلب للقلب . . ولا يرى عقبة في سبيل الحب . . !

قال ـــ لقد كان ما كان . . !

ومرت فترة صمت .. كان حمدى أثناءها فى أودية الجحيم يهيم .. والفتاة بين مفاوز نفسها الوعرة ، التى تلبدت بالغيوم من عهد غير بعيد .. تضرب على غير هدى ..!

* * *

كانت ليلى وحمدى .. وسلمى .. فى عهد الطفولة صحبة ، وكان كل منهم ظلا للآخرين .. فلم يكن لأحدهم أن يفترق عن صاحبيه .. يقضون النهار فى اللعب .. حتى إذا ما جن الظلام أوى كل الى مخدعه فى حضن أمه يحلم فى براءة .. إلى أن ترفع الشمس حجاب الظلام .. وترنو من خلفه تلق بسمة النور على الكون الجميل .. فينعقد جمع الثلاثة .. ويأخذون في اللعب ..

ومرت الأيام ..

وكبر الثلاثة ..!

وقد أحب حمدى ليلى .. فأضحت سلمى صديقة للحبيبين .. إلا أنها كانت تعيب على حمدى مسلكه .. لما كانت تراه يقابل إعراض ليلى وصدودها .. بوفاء وإخلاص .. ! !

وكانت تقف منهما .. كمن يرقب رواية سينمائية. كان يظن نفسه منها البطل .. فاذا به من الشاشة فى أقصى مكان .. !!

* * *

قالت الفتاة بعد أن طال الصمت :

ــ أكان لك أمل فى أن تبنى بليلى .. ؟

قال كلا ..

قالت ــ إذن شنشنة تعرفها من أخزم..!

ــ ولكن الفريق يحلم بالمعجزات . .

ــ وهل تثق بالدهر إلى هذا الحد . . ؟ ؟

ــ ليست ثقة . . ولكنها أحلام . . !

وصمت برهة واستطرد .

ــ وكثيراً ما تطلع الشمس . . فتبدد الأحلام . . !

قالت الفتاة :

ــ أهى عظيمة حتى أنها صارت حلماً . . ؟

ــ . . . ؟ ؟

ــ تالله إننى مشفقة عليك . ولست أدرى ما ميزتها على غيرها من الفتيات . . ! ؟

ــ للناس فيما يعشقون مذاهب . .

قالت ـ إننى راثية لك ، حزينة من أجلك .. وبودى لو أستطيع إنقاذك . .

قال ــ وأنا أشكر لك هذا الشعور النبيل . . !

قالت ــ لقد سألت صديقة لى فى أمرك . . وأى طريق

إن تسلكه تسل . . فقالت ليحب غيرها فيسلوها . . ثم يكون من السهل عليه أن يترك الأخرى . . لأن أقوى الحب با كره وأما ما يأتى بعد الحب الأول فمن اليسير تناسيه . . ! !

قال ـ وأنى لى بمن تنسينى ليلى . . ؟

قالت ـ أظنك تراها ، فلا تتمثل غيرها فى هذا الوجود ..؟؟

ـ . . ؟ !

ـ إسمع ياحمدى . .

ـ هيه . . ! ؟

أريدك ماجناً ، ساخراً من كل شيء .. عابثا بكل قلب .. بوهيميا .. فلتدفن قلبك .. ولتدع حبك .. واعلم أنك ستكون سعيداً .. ! !

قال ـ وهل يستطيع المحزون أن يسعد ؟ ؟

قالت ـ لا يعلم الطبيب مفعول الدواء كمن يتجرعه . . . وثق بأنه دواء ناجع . . لتهزأ بكل شيء . . . ولتقل أن لا حب فى الوجود . . ولتحتقر ليلى . . ليلى التى تنشد السعادة عند غيرك ، فى رحاب ماله . . وبين أحضانه . . ! !

وصمت الاثنان

وأطرقت الفتاة . . ووجم الفتى وا كتأب . . ! !

* * *

قالت سلمى : أما رأيت غريمك . .
قال ـ أجل رأيته . . !
ـــ صفه لى . .
قال حمدى ـ أعفر أغبر . . بلغ من العمر ما قرب من الكهولة . . أبرز صفاته أنه يبدو كالأبله . . ! !
فأرسلت الفتاة ضحكة معنوية . . وأعقبتها قائلة :
ـــ ولـكنها مسرورة به . . فرحة طروب . . ! !
نالت جملتها من نفسه . . وآلمت حسه .. ولـكنه لم يتكلم .. فصمت ولم يجب .. ثم أطرق كأنما يغالب دمعاً بمحجريه . .
. . . . . . وصعدت زفرة من أعماق صدره وقال : وداعاً ياليلى . . فماأظن أننى سألقاك بعد ذلك اليوم الذى كان عصيباً . . !
قالت سلمى ـ ولم . . . ؟ ؟
قال ـ ليس من حقى . .
ورفع بصره إلى وجه الفتاة قائلا :
ـــ سلمى . . !
فنظرت إليه نظرة إيجابية فاستطرد :
ـــ أفتظنين أن رجلا فى عقده الخامس يقدم على الزواج

من طفله لم يرها . . إلا لأنه ينشد من ورائها شيئا عظيما . .؟؟

قالت ـ سنة الخلق فى هذا الزمان . . !

ـ سنة خاطئة . . ولعمرى إنهم باعوا قلوبهم . . وأفنوا نفوسهم.. فويل لهم من الدينار الذى يجدون فيه طريقه باحثين..!!

قالت ـ إنها تعلم أنه ماطلب يدها رغبة فيها هى . حتى ولا في جسدها الغض إن كان بهيميا أعمته الغلمة .. وإنما طمعاً . . لا أكثر ولا أقل .. هى تعلم ذلك منه وبالرغم من هذا كله .. هى مسرورة به .. !!

***

وقام حمدى مغادراً المكان . . والفتاة فى أثره مشيعة . . تصوغ كلمات عذرها عن أنها كانت هى المخبرة له بهذا النبأ الأليم :. ففجعته فى أسمى الآمال عنده

قال حمدى ـ لقد وقعت الواقعـة . . فهل لايحزننى إلا أن يحمل إلى الخبر .. ؟؟

.. ..

.. .. .. وخرج إلى الطريق . . !!

ماذا يرى . . ؟ وأى شىء ينظر . . ؟ ؟

لا شىء . . لا شىء غير أن الطريق مقفر رغم ما يروح ويجىء بين جانبيه من خلق كثير . . !

وهكذا الشقى أبداً . .

يرى الناس جماهير وجماعات . . ولا يعترف بوجودهم . .
ما دام لا يظفر من بينهم بمنصف أو نصير . . ! !

وسار حمدى . .

ولكن إلى أين . . ؟ ؟

إنه يضرب على غير هدى . . ويتخبط دون وعى أو رشاد
فهو لا يدرى :

هل يذهب إلى البيت . . ؟ ؟

إنه يخشى جحيم الوحدة . . !

أم يعرج على هذه المقهى . . ؟

إنه ينفر من الناس . . ! !

إذن فليضرب إلى حيث لا يدرى . . ! !

خواطر التعساء . .

وأوهام المنكوبين . . !

وأحلام الغرقى . . ! !

كل هذه تعقد خيمة على نفسه . . وتضرب بينه وبين العالم
حجاباً . . فهو لا يرى من خلفه شيئاً . .

. . . ها هى ذى مقبلة على زوجها باسمة . . تفتح ذراعيها
لتستقبله بينهما . . !

وها هوذا الزوج البغيض ، يضمها إلى صدره . ويلثم وجهها المشرق ، الذى ترفعه إليه فى انتظار القبل . . !

ثم وها هى ذى تجرى هرباً منه فى اشمئزاز . . وتهتف من أعماق نفسها . . حمدى . . حمدى . . إلى . . إلى يا حمدى . . !!

إنه سيحطمه . . إنه يثور عليه . إنه يثور عليه . . لابد من الانتقام . . !!

صور تتلاحق . وآلام تتدفق . . وليس لها غير صدر حمدى مرسح تمثل فيه المأساة الأليمة

. . . . ولبث حمدى هائماً فى طريقه . . وكأنه ريشة فى مهب الريح ، تذهب بها أنى شاءت . . . وتلقى بها إلى حيث تريد . . !!

وبعد عناء طويل . .

أفاق الفتى الشقى من هيامه . . وعاد يتبين نفسه ، وأين هو . . ؟ ؟ فاذا به على قيد خطوات من الدار . . فأوسع الخطى حتى ولج الباب . . ثم صعد الدرج في تثاقل . . وإعياء . . !!

. . . كانت الساعة العاشرة مساء . . !!

وكانت الدار هادئة ساكنة إلا من أنفاس النائمين ، تتردد فى صدورهم . . ودقات الساعة التى تقوم على الجدار ، ترصد مرور الزمن . . وتنوح من حين إلى حين . . ناعية فناءه . . !!

وعلى مقعد تهالك في البهو الذى يفصل الحجرات . .
واعتمد بيده اليمنى رأسه الملتهب . . وراح يسبح في مسابح الغرق . . وإن كان قد أعياه الجهد . . ونال منه العناء . . ! !

فيم يفكر . . ؟ ؟ وبأى شيء يحلم . . ؟ ؟

تذكر حمدى . . والذكرى أليمة . . ! !

مر بخاطره يوم ٢١ يوليو الماضى . . ذلك اليوم الذى سجل أثراً . . هو من أسوأ الآثار فى نفسه . . ولن ينساه ما دامت له الحياة تنفحه بنسماتها . . !

لقد شاقته رؤياها . . فذهب ليراها . . وما كاد يشرف على الدار حتى وجدها على غير مايعهدها . .

. . . الخدم يعملون في تنظيف البيت بجد . . ومن خلفهم أختها تشرف على عملهم . . والكل في اهتمام ظاهر . . ! !

وتقدم حمدى من الفتاة قائلا :

ــ ما الذى حدث عندكم من جديد . . ؟ ؟

قالت الفتاة وقد افتر ثغرها :

ــ سيقدم ضيوف فى الغد . . !

جملة لا شيء فيها ولا غرابة . . ولكنها ألقت الروع فى نفس حمدى . . إلا أنه لم يكترث . . ولم يجعل لأثرها فى نفسه أهمية . . ومضى يتنقل بين المقاعد المتناثرة، والأثاث المشعث . .

ثم التفت لها سائلا :

ـ أين ليلى . . ؟ ؟

ـ ستحضر وشيكا

وما كانت لتنتهى من جملتها قبل أن يدلف إلى الحديقة . . منساباً بين أشجارها . . متلهياً بالأغصان تميس بين يدى النسيم . . حتى انتهى به المطاف إلى حيث تقوم شجيرة الياسمين . . التى تحت نافذة غرفة ليلى الجميلة . . !

ووقف حمدى يجمع بعض الأزهار البيضاء . . ذات الشذى العطرى العبق . . وكان يردد بنغمة الشجى الطروب :

يادار عاتكة التى أتعزل

حذر العدا وبك الفؤاد موكل

وإنه لفى شجوه يجمع الزهيرات . . إذا بحركة خفيفة تنحدر من النافذة ، أشبه بحركة الفراشة تتقلب على أوراق الزهر . . فرفع بصره علياً . . فاذا ليلى مطلة من النافذة ، كالبدر بدا من وراء الغمام . . يشع وجهها نوراً وسحراً . . وعلى ثغرها بسمة . . !

ليست بسمة اليوم ككل بسمة ، فان حزناً يخيم عليها . . وأسى يكسوها . . تحاول أن تصبغها بلون من ألوان السرور والبشر فلا تستطيع . . ! !

وقابل حمدى بسمتها بافترار الثغر . . يحي الجمال والحب .!

وكان قد جمع عدداً من الزهر ليس بالقليل . . وأودعه طربوشه . . ثم رفعه إلى رأسه بتؤدة . . وهو ينظر إلى قمر حياته . . وشمس نفسه . . !

هذه كانت عادته ـ جمع الزهر ـ كلما ذهب إلى دار الحبيب وزهر الياسمين دون غيره . . حتى إنه أولع به ، وأصبح لا يجد لذة لرائحة كعطره . . ولا لأريج كنشره . . فزهرة واحدة منه تكفى لجلب الصفاء لنفسه فى أشد ساعات الكدر . . فانها لتحمل منها . . صفاء اللون . . والعطر . . والشذى . . !

*
* *

وعاد حمدى إلى حيث يعمل الخدم . . فقد بدت ليلى كالريم النافر . . تتيه دلالا فى ثوبها الوردى . . الذى ضاعف فتنتها ، وكساها جلالا ، وحسناً . . !

لم يرها قبل تلك الساعة فى مثل هذا الجمال البهيج . . ولم ير لأنوثتها فتنة كما كانت فى ذلك اليوم . .

صافحها حمدى . .

وكانت يدها مضطربة ، وكانت يده باردة ، وقال مداعباً:

ـ ما بالك آثرت الهرب هذا اليوم من العمل . . ؟؟

طأطأت رأسها ، ولم تجب إلا بنظرة حزينة ، مأخوذة ،

ذاهلة . . وأجابت أختها .

ــ أعلى العروس أن تعمل . . ؟ ؟

يا للهول . . ! !

أهى صاعقة انقضت على هيكله فهدمته . . ؟ ! أم نازلة القضاء ذهبت بنفسه بدداً . . ؟ ؟

لا . . لا . . الأمر أجل من أن تفسره شباه القلم . .

وقال حمدى بصوت اجتهدأن يكون خالياً من كل اضطراب

ــ عروس . . ؟ ؟

قالت الأخت ــ وقد انسحبت ليلى من المكان :

ــ أجل . . إن ضيوف الغد ، ما حضورهم إلا لطلب يدها . . ! !

لم يتكلم . . ! !

ولكنه سار إلى أقرب مقعد ، وارتمى عليه خائر القوى . . موزع النفس ، وقد اسودت الدنيا فى عينيه . . ودارت به الأرض الفضاء ، وكأنها كفة الحابل . .

وصمت صمتة . . يعلم الله ما كان يضطرم بين جنبيه من لهب يحرق القلب . . ويذيب منه سويداء الفؤاد !

وإنه لفى جلسته بين آلامه . . والخدم يعملون ، والكل منصرف عنه . . إذ راحت الذكرى ترفع له الستار عن الماضى . .

تذكر حمدى أيام أن كانا صغيرين ، يقضيان جل اليوم فى اللعب تحت شجيرة الياسمين التى لا تزال على عهدها مورقة مزهرة .. لا تبخل عليهما بريا أزهارها .. كما كانت لا تضن عليهما من قبل بأن تضمهما طفلين بين أغصانها المدلاة المتشابكة

... ولما كانا يجمعان الأزهار ، ويذهبان بها إلى مكان قصى ويختفيان عن عيون البستانى خوف زجرته وغضبه .. ! :

ولما كانا يقضيان أوقات الظهيرة ، والحر هجير .. على الروابى العالية ، تحت أشجار الأثل التى تقوم فى جوف الصحراء المترامية الأطراف .. فيجمعان الحب والحصى .. ويشيدان بها البيوت الصغيرة .. فى ساعات اللهو واللعب ..

لقد كانا طفلين..

وما كانا ليعرفا الحب .. ولا ليدركا كنهه .. ولكنهما كانا سعيدين .. في ظل الطفولة البريئة التى لا تعرف حداً ولا قيدا .. !!

تبين حمدى وهو فى جلسته ينظر « فلم » العهود الخالية .. أن في كل حركة من حركاتهما .. نذيراً ينذره بالشقاء .. وبالويل والثبور .. !!

فان تلك الصروح التى كانا يبنيانها من الحب والحصى . فتأتى الريح شديدة ، فتهدم كيانها .. وتذهب بجزيئاتها أباديد..

إنما كانت رمزاً لصرح الأمل .. الأمل الذى عصفت به رياح الشقاء، فطوحت به ..!!

وتذكر حمدى لما ابتدأت ليلى تشعر بمكانتها من نفسه ... وراحت تتدلل .. وأخـذت تحتفظ بكيان أنوثتها دونه .. وتضن عليه بجلسة من جلسات الطفولة السعيدة ... !

وظل حمدى غارقاً فى خضم الذكرى — في ذلك اليوم — ولم يفق إلا على صوت أخت ليلى التى وقفت أمه تقول .

— لقد انتهينا من الصالون .. فتفضل بالذهاب إليه اتقاء الغبـار ... !

تردد حمدى بادىء ذى بدء .. بين الذهاب إلى الصالون والعودة من حيث أتى .. ولـكنه رأى الصواب أن يدخل ويجلس ولو قليلا .. خوف الريبة والانتقاد .. فقام متثاقلا .. وسار نحو باب الصالون الذى ماكاد يتخطى عتبته ، حتى رأى.. ليـلى ..!

كانت ساهمة كمن يسبح فى جو بعيد من الخواطر .. وليس يدرى بم كانت تحلم .. ولا فيم كانت تفكر ..!!

إلا أنه يعلم .. أنها عذراء ككل عذراء .. ولها آمال .. ولها مطامع .. مقبلة على حياة جديدة .. لاتدرى ما سيكون نصيبها منها ..!!؟

ستزف إلى رجل لاتعرفه .. ولم تره .. ولا تعلم من أمره شيئاً غير أن أباها سيزوجها منه .. لأن مركزه الاجتماعى كبير .. وراتبه ضخم .. وإنه ليكبرها بثلث قرن .. !!

وإنها لتعلم حق العلم . أنه ماجاء وطلب يدها إلا طمعاً من ناحيته فيما لوالدها من مال وفير ..!!

خدع كلها الحياة ..!!

هذا يضلل نفسه عن مأرب ذلك منه .. ليظفر بطمعه فيه .. وذاك يتغاضى عن مطمع هذا لينال حاجته لديه .. والكل فى خداع ونفاق .. !!

. ... وارتمى حمدى بجسمه السقيم على المقعد فى غير اتزان .. فسقط طربوشه عن رأسه .. وتناثرت الأزاهير .. ! ؟

بهتت ليلى لما حدث ..!

وقالت فتاة ضاحكة فى هدوء :

ـ هيا اجمعى ليلى الزهر .. !!

ولم تجب ليلى .. ولكن حمدى انحنى في تثاقل ، وأخذ يجمعه ، ويضعه فى طربوشه .. ثانياً

لقد كان حمدى عظيم الاهتمام بشأن الزهر : فلم يكن ليتهاون في أمره .. وبخاصة أزهار الياسمين .. وكثيراً مابكى الأزهار

التى يجدها ملقاة فى الطريق ذابلة .. وقد حبر فى ذلك القصص والقصائد . . ناعياً هذه القسوة ولو لم يكن اهتمامه هذا غريزى فى نفسه لترك الأزهار فى هذه اللحظة الرهيبة . . !!

ولقد وجدها متراخية الأعصاب . . بالرغم من أن اقتطافها لم يمض عليه ساعتان . . !!

هذه هى الأزهار . . الأزهار التى كانت تظل نشوى أكثر من نصف يوم . . وربما حتى الصباح إن كان اقتطافها عند الأصيل ؛ هاهى ذى قد ذبلت . فالحياة إذا أدبرت عن امرىء سلبته كل جمال فيها . . !!

وسارت ليلى ، فى خطوات مريضة ، بنفس حزينة نحو (الراديو) فأدارت صمامه . . !!

وكأنما القدر كان مجمعاً مع حمدى فى كل شىء . . على وداع عهد . . رغم ما كان يسوده من الشقاء . . كان سعيداً . . ذلك العهد . . عهد الحب من ليلى . . عهد النعيم والغبطة . . فقد كان (الراديو) يذيع أنشودة الشاعر « رامى » يتغنى بها الموسيقار « عبد الوهاب »

ياما بنيت قصر الأمانى   وفضلت أقول سعدى وفانى

... ...

كان كل كلمة تهز كيانه هزاً . . وتحز فى فؤاده حزاً .

وكأن الصواعق قد صبت من السماء على الأرض .. ولقد رأى كالعيان : في صفحة الفكر كأنه في السينما يشاهد « فيلم دموع الحب » وبطله يجر نفسه جراً . . يتغنى بهذه الأنشودة الحزينة ـ باكياً محطماً . . ! !

لقد رآها قبل ذلك . . وكان يتوقع ما سيحدث له . . وبكى ما شاء له البكاء . . وكتب لصديق له يخبره أنه رأى قصته على الشاشة البيضاء .. وإن كانت لم تتم فصولها بعد .. ولكنها دون ريب قصة تمثل على مرسح الحياة . . وإنه فيها البطل ..!!

حارت الدموع فى حدقتيه . . ولكنه احتبسها . . ولم يذرف منها دمعة . .

وانتهت الأغنية . .

فنهض على الفور . . ولكن فى إعياء وتثاقل . . وصافح الجميع إلا هى .. فقد كانت منصرفة إلى ذات نفسها .. فلم يرض بأن يقطع عليها حبل أفكارها . . وخرج . . ! !

وما كان يدرى أين يضع قدمه الطائشة .. ولا كيف يسير .. ولكنه كان ينقل الخطى فى ضلال . . وكأن بساقيه حبلا يقيدهما . حتى أنه لم يفرق بين درجة السلم . . وأصص الزهر التى كانت بجانبها . . فبدل أن ينقل للسلم قدمه . . وضعها على إحدى الأصص . . وما كاد يأتى بثقله عليها . . حتى انهارت

وهشمت . . فاختل توازن جسمه . . فهوى على الأرض . .!!

وهكذا عبر القدر مرة ثانية عن مأساته وفجيعته . . فحطم تحت قدمه أصص الزهر . . !!

يا للفجيعة . .

إن كل شيء يترجم عن خطبه الذى نزل به . . وكل شيء يقظ ، حساس ، حتى الجماد . . !!

فالهواء عكر والجو مظلم . .

والشمس مغبرة . . ونفسه حائرة . . وقواه خائرة . .

ألا . ما أشقاه ، ما أحزنه . .

لقد قام من سقطته محطما كما تحطمت الأصص تحت قدمه . يجر نفسه فتكاد قواه لا تعينه . . !!

* * *

وأفاق حمدى من هواجسه على صوت ناعية الزمن تعلن منتصف الليل . . !

وصعد زفرة . وجفف عبرة . وقال :

أجل . .

ومن فشلت آماله في حياته

فليس له غير الدموع وسائل..!

وتذكر حمدى لما ضاقت به البلوى ذات يوم فكتب إلى

إحدى الصحف فيها باب للاستفتاءات . يستشيرها فى أمره ولم يذكر اسمه . . وقال في رسالته لمحرر هذا الباب :

سيدى الأستاذ . . . .

تحية وبعد :

لشـد ما يخجلنى أن أرانى مضطراً لأن أشرك غيرى في أمرى . . فأبسط بين يديك شكايتى . . . وأكشف لك الستار عن آلامى ، مستشيرا إياك فى بلواى . .

منذ عشرة أعوام مضت وانقضت . . نبت بين جنبى نبات جميل ، مستمداً غذاءه من بهجة فتاة كنت وإياها متلازمين . . ولا أستطيع أن أسمى هذا النبت العطرى إلاأنه عاطفة سامية ، ولا أقول حباً ، كما يسميه الناس ، لأنه يسمو عن سمو الحب ولـكنى ياسيدى أستطيع أن أقول . . إنه تقديس وعبادة ..!!

تهيبتها . . فلم أكشف لها عن سرى . . ولم أطلعها على أمرى . . ولـكنى بقيت صامتاً ، والنار بين جنبي تتقد ضراماً وجمراً . .

وكما أن لـكل شيء نهاية . . فلصمتى أيضاً نهاية . . لأنه لم يخرج عن أنه مشكلة بشرية . . وكان أن عرفت دون أن أتعمد . . « وعين المحب دليله » .. فلم تنفر .. ولم أجرؤ أناعلى أن أثبها نجواى . . وشكايتى . . بل بقيت كما أنا متهيباً هـذا

الجناب . . وكما أنها لم تنفر فلم تستأنس ، وتركن إلى جانبي . .
وبقينا وكأن شيئاً بيننا لم يكن ، مع أن وقد الحب يلهب نفسي
وقلبي . .!

وظلت لا تقبل . . ولا تدبر . . حتى عرف غرامي الجميع
دون قصد مني . فاذا بها نافرة شاردة . . تقصيني .. وتبعدني ،
حتى خيل إلى أنها لا تود رؤياي ، وأيقنت من أن الرجاء توارى
فرحت أبكي الحب والأمل . . وأرثي طللهما البالي . .

ولكني حرت في أمرها ، عندما علمت أنها كثيراً ما تعكف
على نفسها ، في وحدتها ، وتروح تنشر بين يديها بعض آثاري
التي وصلت إليها عفواً — واحتفظت بها بشدة وحرص —
وقتاً كأنما تطالع فيها سطوراً ..!

قيل لي إن آثاري لديها عزيزة .. وإنها لكثيرة الحديث
لخاصتها عني ، كلما كانت وإياهن وحيدة .. ولكننا إذا التقينا
فما نصيبي منها إلا النفار .. والصد ..!!

لست أدري ياسيدي ما مكانتي منها والحالة هذه .. مع
ما يبدو من تناقض الأمور ..

وأخيراً .. رأيت أن ألجأ لاستشارتك .. وكلي أمل بأن
رأيكم السديد .. وبصيرتكم النافذة . . سينيران لي الطريق إلى

هذا الحب المظلم ، الذى أتخبط في دياجير شقائه .. منذ الصغر ..
وتفضلوا بقبول فائق تحياتى .

حار الأستاذ الموكل إليه تحرير هذا الباب فى الرد على هذه الرسالة .. فلم ير بدأ من أن يكتب لصاحبها على صفحات الجريدة تحت الرسالة :

« هذه أول رسالة تلقيتها ، كتبت بأسلوب صحيح سليم وكتبت بروح قوية غير مفتعلة ، فأنا أهنئك بأسلوبك ، وأرجو لك اطراد التحسين .. وبعد .. فقد فكرت فى رسالتك كثيراً فلم أهتد إلا إلى فكرة واحدة لا ثانية لها .. »

ثم أورد فكرته .. فلم يصب قلب الحقيقة .. ولكنه كتب ما يراه ..

كم ظل حمدى حائراً فى أمر نفسه وهذه الفتاة .. وكم ضاق ذرعاً بقسوتها عليه أمام عينيه .. فهو لا يدرى لذلك من سبب

* * *

أحزان الحياة ..
وهموم الثواكل ..
وآلام الأشقياء .. !!

كل هذه تراكمت على نفس حمدى ، فأثقلت كأهله .. وكادت تقضى عليه .. لولا أنه قام لصلاة العشاء .. عل الله يخفف ببركات الصلاة آلامه .. !!

ولكن بأى عقل يصلى .. ؟؟

ها هو ذا يقوم ويقعد .. يركع ويسجد .. ولكن ليس يدرى كم ركعة صلى .. وإلى أى حد بلغ من الصلاة .. أنصفها أم منتهاها .. ؟

وظل على حاله .. لا يعلم مما يفعل شيئاً .. حتى ناحت ناعية الزمان .. تدق الثانية بعد منتصف الليل ..!!

وقصد حمدى إلى مخدعه ..

الفراش جمر غطى بشوك القتاد ..

وهواء الحجرة فاسد ..

ونجوم السماء تطل من النافذة كئيبة وليست كعهده بها صافية ..

والمحزون كثيراً ما تطغى عليه الهموم فيغفو ..

وكان من عادة حمدى أنه إذا حزن حزناً شديداً .. واستوى على الفراش ، نام نوماً عميقاً ..

ولكنه ما نام الليلة إلا لينتقل من حياة الحقيقة إلى حياة الأحلام التى رآها مفزعة مروعة ..!!

رأى حمدى فيما يرى النائم أنه يسير وصديقاً له .. وقد أشرفا على سرادق فيه حفل .. عرف بوحى من نفسه ، أنه عرس ليلى ..!!

وسارت به القدم طائشة مضطربة حتى دخل بيتاً منيفاً بجوار السرادق .. وفى حركة سحرية .. وبتلك السهولة التى امتازت بها الأحلام .. وجد نفسه فى حجرة أنيقة الأثاث والرياش .. هى حجرة نوم ليلى العروس ..!!

ورأى ليلى جالسة على فراشها فى انتظار الزوج — الذى هو غريمه — وليس بقادر على أن ينظر إليها بعينه وقد وقفت إلى جانبه أخت له .. قضت منذ عام .. تقول :

— إرفق بنفسك .. وارحم قلبك .. فليس من فائدة يجديها الهم والحزن يا أخى ..!!

ولشدة قساوة الموقف .. ولهول المنظر .. قام حمدى فزعاً .. من نومه وراح يتلفت حوله ، فاذا به كان فى حلم .. وكان الفجر قد انبلج .. والصبح قد تنفس .. فهاهى ذى ذكاء ترنو من خلف حجاب الأفق ، فتلقى على الكون بريق عسجدها .. فتنير أرجاءه ، إلا أن نفس حمدى لم تزل مظلمة ..!!

ومر اليوم بين دمعة تسيل - في غفلة الأخوان - وآهة تسرى بين جنبات نفسه فتمزقها ..!!

وجاء الليل ..

وكان حمدى هائماً على وجهه في الشوارع .. لا يجد له قراراً .. فلقيه صديقه أحمد فسأله عندما رآه في حال متغيرة :

ـــ مابك يا حمدى . . ؟؟

فأجاب : الدنيا مظلمة يا أحمد . . فانني لا أرى فيها بارقة لأمل .. أو شعاعاً لرجاء . .

قال أحمد : إني ذاهب إلى السينما ، وأريد زميلا فهل لك أن تصحبنى . . ؟؟

صمت حمدى متردداً . ورفع رأسه بعد برهة لكى يتكلم مقرراً رأيه . . ولكنه لم يفه بشيء ثانية . . وسار إلى جانب صديقه صامتاً . .

ودخلا دار السينما . .

وأخذ كل مجلسه ، ولم يخرج حمدى من صمته . .

وألقت أشعة الكهرباء بالخيالات على الشاشة . . فأخذت تروح وتجيء . . ولكنه لا يرى منها شيئا . . فانه لمنصرف عنها لذات نفسه

إنه يرى ماضيه . . وحاضره . . أمامه بينه وبين الشاشة ، وإنهما ليحجبا عنه كل شيء . . !!

ومر الوقت .. وساد الملل نفس حمدى ، فاستأذن صديقه .. وغادر المكان . .

وما كاد يخرج إلى الشارع حتى بصر بليلى تسير إلى جانب رجل حقق فيه ، فاذا به الأستاذ مجدى . .

يا للفزع . . !

لقد مرت به . . ونظرت إليه . . ولكنها لم تتكلم . . !!

ثارت نفسه ، واهتاجت كبرياؤه . . وسار في أثرهما إلى أن رآهما يقتربان من سيارة . . وقد تقدم مجدى وفتح الباب.. وهم بأن يدفع بليلى إلى داخلها . .

ولكن حمدى كان كالسهم المارق . . إذا انحدر نحوهما . . ووقف حائلا بين مجدى وليلى . . وأبى عليها أن تركب إلى جانبه وراح يحتج . . ويتهدد . . !!

وأصر مجدى على أن تركب ليلى معه . . وليس له أن يعترضه وزوجه . . !

واحتدم الخلاف بينهما . . فاذا ليلى تقول :

ــ دعنا يا حمدى . . !

ياالهول الصاعقة . . !!

لقد تحطمت القيثارة . . !!!

وتوارى نجم الرجاء . . إلى الأبد . .

وترنح حمدى فى موقفه . . وثارت نفسه . . وأراد الانتقام.. فهوى بيده على وجه ليلى . . لشدة غيظه . . !

ولكن يده لم تلطم إلا رأس الشاب الذى يجلس أمامه فى السينما . . فقد كان فى حلم . . وما برح دار السينما . . وأفاق

من نومه على صوت الشاب صاخباً مزمجراً . .

وراح هو وصديقه يتلطفان إليه .. ويصوغان كلم العذر . . حتى هدأ . .

ولم ير حمدى بدأً من أن ينصرف — لشدة خجله —فاستأذن من صديقه . . وخرج لينتظره على المقهى المقابل لدار السينما ريثما تنتهى الرواية . . ! !

وكان الوقت فى منتصف الثانية عشرة مساء . . !

وسار حمدى فى الشارع الذى يكاد يكون خالياً من المارة .. يضطرب لشدة ألمه . . وثورة نفسه . .

وكانت الاذاعة الرسمية قد انتهت ، وصاحب المقهى يذيع بعض الأسطوانات

وقامت بنفس حمدى فكرة لم يستطع مقاومتها وتقدم من صاحب المقهى ووقف قائلا :

— عندك اسطوانة ياما بنيت . . ؟ ؟

فقام الرجل إليه مجلا يقول :

— أيوه يا افندم موجودة . . ! !

— دورها من فضلك . . !

وفى سرعة لبى الرجل رغبته

وانحدرت إلى سمعه أنغام حزينة ، ملأت نفسه شجواً وأسى

وفاه الموسيقار الحزين يشدو فى حنين وأنين .

وسار فى أنشودته إلى أن قال :

أنا كنت احب الحيـاه وطيف خيـالك نديمى

جن جنون حمدى واهتاج ، وقام يقول بصوت عال :

ـــ أجل يا حبيبتى . .

وسار يعدو في عرض الشارع ، يردد البيت فى بكاء . .

وكان صديقه أحمد قد خرج من السينما . . ورآه يمر به عدواً دون أن يقف عنده . . فسأله :

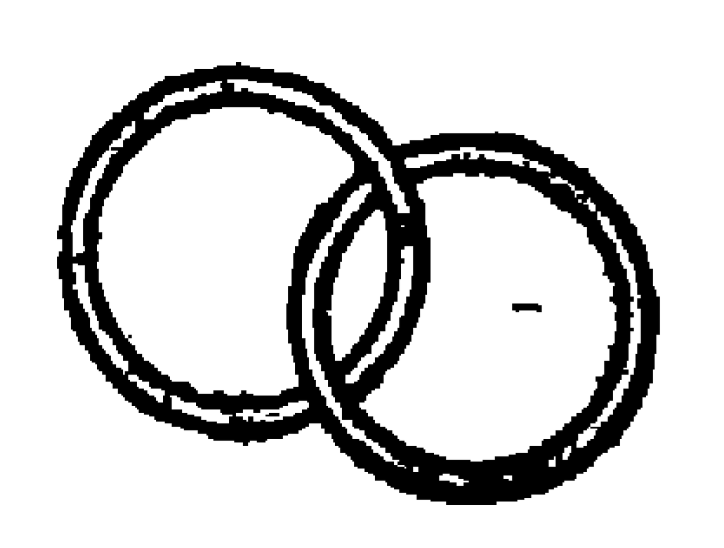
ـــ إلى أين يا حمدى . . ؟ ؟

ولكنه لم يجب . .

بل أدلج في الظلام . . !

وتغلغل بين أستاره . . !!

وتوارى في عالم مجهول . . ! ! !





سمراء ، خمرية اللـون ، عيونها عسلية ، وسحرها أخاذ ..
شعرها فاحم ناعم ، هيفاء ، غيداء ، فاتنـة .. تنطق ملامحها عن جاذبية قوية ، وسحر شعرى . . !!

ما رآها طفل إلا وتعشق فيها ظرفها وفتنتها ، وما بصر بها شاب إلا وقتله سحرها ودلالها . . وما اجتمعت بها غادة إلا واعترفت بجمالها وجلالها . . !!

هى فتاة . . . ولـكن ليست كأى فتاة . .

فلـكل فتاة عينان ، وأنف ، وفم . .

ولـكن . . ليس لـكل منهن سحر ، وجاذبية وفتنة . .

وليس لـكل فتانة ساحرة ، مالهذه من رزانة وحكمة . .

وإنك لو تجولت اليوم فى الدور ، والقصور ، لمـا سمعت إلا حديثها . .

ولو استرقت السمع من مجالس ربات الخدور، لما ظفرت إلا بسيرتها .. كلها إطراء، وثناء فيه شيء من الغيرة الجنسية، تحملها الفتاة للفتاة تفضلها .. !

ولو انك جلست إلى شباب ناهض، فلا يحدثونك عنها، إلا وفي نفوسهم لوعة محرقة، وفي صدورهم حسرة تقطع نياط القلوب ..

ليس هذا فقط .. بل اذهب وسر بين سرب من الأطفال النابهين . فلا يحدثونك إلا عنها، ولا يتكلمون إلا بكلامها، ولا يتمنون إلا لقاءها، حتى إنهم يفضلونه على قطع الحلوى .. وهدايا العيد .. !!

نبه ذكرها حتى سيطر على جو القرية .. ثم تسرب منها الى البلاد المجاورة .. ثم تجاوز هذه وتلك إلى كل بلدة عامرة ..

وكانت ستكون خاملة الذكر ككل عذراء حسناء .. إلا أن الطبيعة أرادت لذكرها الخلود .. !

رآها صاحبي، وكان فتى صغيراً، فأحب فيها رواءها .. وتعشق منها جمالها وجلالها، وجذبه إليها كبرياؤها وإباؤها .. فصار تعيساً بئيساً .. فقد أبعدته ..

واشتد به البؤس، وازداد الشقاء، ولم تكن هي بالراحمة العطوف .. فترثى لمن يتعذب .. !

وخلق الشقاء من الفتى فتى جديداً . .

وأوجد فيه روحاً غير التى كانت تستر نفسه .. وغير التى كانت ستكون له كباقى أبناء العشيرة لو أنه لم يشق بحب هاتيك العذراء . . !

وخليق بالجمال أن يشقى ، ويحزن . .

وجدير بالنفس التى يحزنها الجمال ، ويشقيها الجلال ، فتبتئس أن تكون نفس شاعر .. !

. . . . . . خلقت العذراء بجبروتها شاعراً، في بيئة لم تكن وطناً (لأپولون) فى يوم ما . . وليس ذلك بالغريب النافر ، ولا بالعجيب المستطرف، فأنى وجد الجمال ، وجد محبوه ومسبحوه ومن للجمال يحييه ويسبحه .. غير الشعراء .. فهم الذين يقدسونه ويعرفون قدره . . ! !

سمعت الفتاة صدى كلمات الفتى . . ورنت فى أذنيها أنغام أبياته جميلة ساحرة شجية . . فسرها ذلك . . وأحزنها . . !!

سرت بذلك فقد عرفت قيمة نفسها ، وضمنت لسيرتها الخلود . . فقد تغنى بحسنها شاعر . . فانها لتعلم أن النفس الشاعرة هى المرآة التى ينعكس عليها سناء الجمال ، فيضىء الظلام ويجلوه ، وإنها لأصدق مرآة يرى فيها الانسان نفسه ، ولا ريب أن لوحاتها الرائعة ، التى تخرج فى القصائد المبدعة .. سيكون نصيبها الخلود . . !!

وعلا صوته بالاشادة بذكرها ، وبالتشبيب بها .. وأوحت إليها طبيعة المرأة بالنفار والدل ..!

عناصر تتزاحم وتتلاحم .. وتتصارع وتتدافع ..

فقد صارت حياتها نضالا . . بين الجمال والدلال . . فذاك طيع لمن يشيد بذكره ، ويرفع شأنه .. وهذا أبى إلا أن يصونه ويحفظ كيانه ، حتى يظل إلى الأبد غير مزهود فيه ..!!

وطبيعة المرأة ياصديق ، أن تدبر عمن يقبل .. وتقبل على من يدبر عنها .. !!

سئلت يوماً :

لم أنت قاسية على من يتعذب بحبك ، ويكاد يقتله صدك .!

قالت : لأنه شاعر ..

قيل : وهل ذنبه أنه شاعر ..!

قالت : أجل ..

قيل : ولم .. ؟؟ أفصحى .. !!

قالت : أنظر النحلة كيف تحوم وتطن ، حول الزهرة اليانعة جذبها إليها الشذى ، وأغراها العطر ، فليس ذلك لأنها تعشقها فى روائها ، ولأنها تود أن تقف منها طول أيام العمر حائمة هائمة ، تتعبد وتقدس ، كلا .. كلا .. بل لأنها ترغب فى ارتشاف الرحيق .. وكذلك قلب الشاعر ، حائر دائر ، باك

شاك ، حتى إذا ما نال بغيته من عذرائه ، سار عنها إلى غيرها غير راع لعهده ، ولا حافظ لوده ، وكل ما يكنه لها بين جنبيه بعد ذلك عطف يهبها إياه ، هبة بغير إيمان ..

قيل : وما بغية الشاعر من عذرائه ..؟؟

قالت : أن تسمعه نغم الحب .. !!

* * *

وكان القمر يبسط ضياءه على المروج الخضراء التي تترامى أطرافها على شاطىء النيل ..

وكان الصديقان قد انتهى بهما المسير إلى حيث أشرفا على الماء المتألق تحت الضياء الفضى ..

وقال حسام لمحدثه جمال :

ــ وماذا بعد .. ؟؟

قال جمال :

ــ وصار الفتى يشيد بذكرها ، حتى أصبحت نجماً لامعاً .. وقد فنى ذكره فى ذكرها ، وتلاشى كيانه أمام جبروتها . : . حتى صار اسمه لا يذكر إلا مكنى باسمها للتدليل عليه . . !

وكان العذارى يقرأن ما يكتب ، فيستشطن غيظاً ، ويعبن

عليه مسلكه ، ويتمنين لو أنه كان مشبباً بهن ، محباً لهن ، فكن يقدمن له الغالى الثمين ، ويزجين له الكأس صافية مترعة ، ويمتعنه بالحب كيفما كان ضربه !!

قال حسام :

وهل كان صاحبك راضياً بحاله ، قانعاً من فتاته بما كانت تلحقه به من إذلال وتعذيب .. ؟؟

قال — فى بادىء الأمر ، ثم تبرم ، ولكن الغل قوى ، والأصفاد شديدة ، والقيود محكمة . . فلم يستطع من أسره الفكاك ، ولم يجده التبرم شيئاً . .

وصمت برهة واستطرد :

إنى لأذكر عنه الشيء الكثير ، فقد كنت من خاصته ، لا يكاد يكتم عنى أمراً . . ولقد ذكر لى أكثر من مرة أنه على وشك أن ينجو بقلبه من حب هذى القاسية .. فقد التقى اليوم بفتاة ، وابتسمت له ، وحيته ، فأصابت بابتسامتها الساحرة ثغرة فى نفسه وخفق لها فؤاده ، ولن تمضى أيام حتى يكون قد نسى فتاته الأولى ، واستكان إلى جانب فتاته هذه الطارئة هانئاً ..

سرنى الأمر أول مرة .. وظننته حقيقة وليس بخيال شاعر كالغريق يتشبث بالأعشاب الطافية على وجه الماء والموج

متلاطم صاخب . . . فهنأته بنجاته من عذابه . . . وآلامه . . .
ولـكن . . .

وصمت جمال برهة .. فقال حسام :

ــ ولـكن ماذا .. ؟؟

قال ولـكنه كان حالما واهماً ، فقد لقيته بعد ذلك بأيام ، فاذا سروره قد تلاشى ، وبشره قد استحال إلى كآبة .. وعاوده حزنه القديم .. !

قلت ما بك يا صديق ..؟

قال ، لقد تشبثت بأحبال الهواء ، فتوهمت أننى نجوت من حب معذبتى ، وما كدت أومن بحى الجديد الوليد .. حتى ظهرت فى خيالى فجأة ، فمحت بجبروتها كل شىء . !

ولقد تـكررت منه هذه غير مرة .. وأشقاه الأمر . . ولم يشغل حياته شىء غيره ، فـكان يحاول النجاة من حبها فلا يستطيع ، وقد قال فى ذلك :

أفنيت روحى ونفسى ـــ فى حبها وشـــبابى
ولم أنل من هواهـا ـــ إلا دوام اكتـآبى
فهل لقـــلبى .. نجاة ـــ من شقوتى وعذابى ؟

ولقد تبرم بحياته التاعسة حتى أنه كان إذا رأى حسناء هرع إليها ضارعا أن تنقذه من عذابه وألمه ، بأن تفسح له مكاناً

فى قلبها .. لعله يكون من الناجين فيسعد ..!

ولكن ما كان له أن يملك فى نفسه شيئاً ، فما كانت تفتح له فتاة قلبها ، ويسير وإياها شوطا فى الحب الذى يطمئن إلى دوامه كل منهما حتى تظهر في أفق قلبه شمس فتاته الأولى ، فتمحو بأشعتها كل شيء . .

وحدث ذات يوم أن رأى فتاة وقال يصفها لى :

« لم يصغها الله حسناء ، بل صاغ الحسن منها »

رآها .. وسار خلفها ، يرسل إلى أذنيها آى الاستحسان العذب ، وسايرته ، وتمادى بهما الحلم ، حتى استوثق هو من أنه قد أحب حقاً .. ونسى تلك التى أذلت كبرياءه .. وأصغرت إباءه . . ولم تحفظ عليه عفاف نفسه وحياءه . . . واغتر بثقته فراح يذكر لفتاته ماضيه ، وأنه هرع إلى رحمتها من ظلم تلك ، وإلى جانبها من جحيم تلك لكى يرى الجنة . . وإلى نور حبها ، من ظلام الصد والهجران ... ورضيت الطائشة بأن تقبل قلباً ممزقا ! . . وحشابالية ..

ولكن . . لم يكن حبه هذا إلا وهما . . ولم تكن نجاته إلا سراباً ، فقد سطعت فى نفسه شمس الفتاة بعد ما حجبتها غلالات السحب التى انقشعت ، وبدت من خلفها رائعة الجلال . . وكأن صوتاً يأمره :

— إرجع إلى أسرك فانك لا تملك لنفسك أمرا

قال حسام :

عجيب يا جمال . . ألهذا الحد ..!؟

قال : لقد خلدته كما قضت على سعادته ، ولقد كان فى أيامه الأخيرة يستعذب الألم فى أغلب أوقاته ... ولكن ثورة آلامه إذا احتدمت فقد كانت تبكيه

كنت أراه ياحسام ساهما صامتاً ، فأنظر إلى وجهه ، فاذا الدمع فى عينيه يترقرق . . ثم لا يلبث أن يتدفق . . ثم يجهش فى البكاء ...

ولقد عذب أمه عذابه ... وشق بشقوته صحابه ، وتألم من أجله أترابه ...!

قال حسام :

... ولكن ما ذكر الفتاة بين الغيد ، وكيف صارت حالها بعد ما اتسعت شهرتها وشاعرها . . !؟

قال جمال :

صارت محط الأبصار والآمال . . وصـــار بيتها كعبة الفضوليات من الفتيات . . وتوافد على ذويها — من كل فج — من يطلب يدها ، فما كان جزاؤهم غير الرفض . . إلا هذا الرجل الأخير الذى فتنهم ثراؤه . . !!

قال حسام :

لقد أسعدها وأشقته ، وأظهر للناس حسنها فبخسته حقه .. وأبرز مميزاتها .. وعرضها فى أخيلة الناس فى أحسن صورة تخلب اللب وتفتن الوجدان فتوله بحبها الجميع .. وكان جزاؤه الشقاء والعناء .. !!

قال جمال : أجل

وأردف حسام :

ويجب أن يكون هذا جزاؤه .. فالعالم ياصديق لا يجزى المحسنين إلا بالاساءة والشقاء فى حياتهم حتى إذا ماقضوا .. قالوا : رحمة الله عليهم فقد كانوا محسنين !!

قال جمال :

ولقد أعرف أنها ما كانت تحل فى بلد ، وعرف أهلوه مقرها ، إلا وراحوا يحجون إليه لكى يروا تلك العذراء التى خلقت شاعراً فذاً فى وسط ساده الخمول ..

وكانت تعرف ذلك منهم ، فتشفق على نفسها من نظراتهم المختلفة المعانى ... بين الحسد لها ، والحقد عليها ، والرثاء لذلك البائس المسكين ... فكانت تقابلهم حيناً ... وتعتذر أحياناً ...

قال حسام :

لقد عظمها شاعرها ، وجعلها تتبوأ مكاناً اجتماعياً كبيراً ما كانت بالغته بنفسها ، ولن يكفله لها جمالها وحده . .

إعلم يا جمال أن الجمال سلعة كاسدة ، غير رائجة سوقها ، إن لم يصادفها شاعر ، يشيد بذكرها .. ويمجدها ، وينوه عنها . . . وينبه لها الأذهان . . فلو لم يكن صاحبك لظلت فتاته خاملة الذكر طول حياتها ، وقضت دون أن يشعر بوجودها إنسان .. لقد خلقها كما خلقته . .

وصمت الاثنان برهة قال بعدها حسام :

ولكن سر اختفائه لم ينكشف بعد . . !. . لقد مرت به أيام ولم يعلم عنه أحد شيئاً . . .

قال جمال :

ولقد بحثنا عنه كثيراً فلم نعرف مقره ، إنه ليؤلمني أن يختفي كذلك . . . !!

* * *

. . . وكان صباح اليوم الثاني ..

ونشر جمال أمام عينيه جريدة الأهرام فأول ما صادفه صورة صديقه ... وبلهفة أخذ يقرأ ما كتب عنها . . .

قالت الأهرام :

عثر رجال مصلحة الحدود الجوالة في مجاهل الصحراء

الغربية على (الأستاذ حمدى) ملقى بجوار أكمة ، فاقد الحياة لشدة القيظ ، وحر الهجير ،وكان فى جيبه صورته وحافظة نقوده ، ورقعة مكتوب فيها بخط يده عبارة هذا نصها :

« ضاق بى العمران .. ولم أظفر فيه بتحنان . . . فهرعت إلى الصحراء ، على أنال في فضائها العريض ما عشت محروماً منه طوال أيام الحياة التى لم أر منها إلا ظلام الشقاء . . . فالى فتاتى نفسى وقلبى »

وقد قرر الطبيب الشرعى أنه مات ظمأ . . . فالى رحمة الله وفى رضوانه . . .

* * *

صعق جمال للخبر ، واعتراه ذهول فلم يدر أيصرخ أم يبكى وقال :

« لقد عاش ظمآناً ، ومات ظمآناً . . . فكانت حياته كلها ظمأ . . . »

وطار أحدهم بالخبر إلى الفتاة ..

فتظاهرت بعدم الايمان . . وما كاد المخبر يعرض أمامها صفحة الأهرام ورأت الصورة . . وقرأت خبره حتى صرخت صرخة داوية ، وكانت تنشج وتقول :

« لقد أحسن إلى فأحيانى . . . وأسأت إليه فقتلته » .



دانتي ...

« رب اللغة الايطالية .. والساهر على نمائها »
« في أرجوحتها .. ونبع الوطنية الفياض.. عاش »
« شريدا ، ومات طريداً ، ولم يعترف بفضله أحد»
« معاصريه ..!! »

من ذا الذى لا يعرف رجل إيطاليا الأول .. الذى جاهد جهاد الجبابرة ، لجمع شملها ، وتوحيد كلمتها ..!؟

ذلك الشاعر الفلورنسى ، الذى رعى اللغة الايطالية في مهدها ، وترنم لها بأناشيد عذبة طلية ، وهى فى أرجوحتها كالطفل الوليد .. حتى نمت ، وصارت فتية .. !!

ذلك الرجل .. هو دانتى اليجييرى ..!!

إن كنت لا تعرف عنه شيئاً .. فتعرف عليه فى كوميديته المقدسة التى جاءت آى العبر .. ورمز الخلود ..

تعرف عليه في جحيمه .. وأعرافه .. وجناته .. تلك التى رسمها للبشر بأبرع ريشة يختال بها أنبغ الفنانين

* * *

نشأ دانتى غيوراً فى وطنيته .. فطرياً فى شاعريته ، محباً للعزلة فى أكثر أوقاته . . وتقلب فى مناصب كثيرة بحكومة مدينة فلورنسا الجميلة .. فلورنسا التى تغنى بجمالها الشعراء . .

وكانت إيطاليا ، إذ ذاك مقسمة إلى حكومات واقطاعات عدة .. يسيطر عليها البابا جميعاً ، فباشارة من بنانه ، يقلبها رأساً على عقب .. !!

واضطربت الحكومة الفلورنسية ، وانقسم الأهلون إلى شيع ، وأتباع ، وطوائف .. وكان من جراء هذا الاضطراب وهذه الانقسامات .. أن استبدت فئة بالحكم ، وراحت تطارد الزعماء ، ذوى الوطنية الصادقة .. والغيرة الحق .. حتى شردتهم في أنحاء أوروبا .. بعد أن حكمت على بعضهم بالاعدام .. ففر من فر .. وهلك من هلك .. !

وممن فروا تحت جنح الظلام ، تاركا بيته وأولاده ، وزوجه على أمل أن يعود ظافراً ، حاملا لواء النصر والحرية .. ولم ترض بالموت ظلما من أيدى المستبدين ودون أن يخدم وطنه .. من هؤلاء .. كان دانتى ..!!

لقد كان عنيداً في الحق .. صادقاً في العزم .. لم يرض بهذا الظلم .. ولا بهذه الفوضى .. فراح يستنجد بأمراء وحكام كثيرين .. في الاقطاعات التي تحيط بفلورنسا .. وكان من أكبر أمانيه أن يرى رجلا حازماً، يجمع شمل إيطاليا .. ويقبض على زمام الأمور فيها .. يخشى الله .. ويخاف عذابه .. حتى تستطيع إيطاليا، التي يرى فيها الأم المقدسة .. ذات الحدود الطبيعية .. أن تكون دولة لها سلطان ونفوذ، ولكي تهدأ فلورنسا الجميلة التي هي مسقط رأسه، ومهبط وحيه وأحلامه ..

كانت هذه أحلام الرجل الطريد .. التي تتراءى له ذهبية وهاجة .. تخلب اللب. وتثمل نفسه طرباً

وتشاء الأقدار أن يرى دانتي بارقة الأمل تنبثق، فتضيء أفق آماله الملبد بالغيوم .. فيعثر على ضالته .. فبعد سنين قضاها شريداً طريداً، بعيدا عن وطنه، يلهبه الشوق إلى زوجه، والحنين إلى بنيه، يحيا بين دجنات اليأس وغسق القنوط .. بعد هذه السنوات أخذ دبيب الأمل يدب إلى قلبه .. !!

فها هو ذا الامبراطور «اريجو السابع» يصل إلى إيطاليا .. ذلك الامبراطور الذي يخاف الله ويخشى عذابه، كما يرجو دانتي، ويستعد لافتتاح أبواب فلورنسا للوطنيين المنفيين ... وقد وعد دانتي بذلك وعداً صادقاً وبأنه لابد فاعل بعد ماينتهي

من لو مبارديا . . . سيذهب لاخضاع المدينة المتمردة وقبلما يزحف على روما

ولبث دانتى ينتظر قلقاً . . بين عواصف خضم الأوهام ، الذى تلاطم موجه . . ورغى زبده . . وكثيراً ما راح يتعجله من ناحية ، ويكتب النداءات الى بنى وطنه ويحضهم على معاونة الامبراطور فى دخول فلورنسا . . وألا يقاوموه من ناحية أخرى . . . فكانوا يضربون بنداءاته عرض الحائط . . . ولا يقيمون لها وزناً . . . الأمر الذى جعل الحكومة الفلورنسية تعمل على مضاعفة النكاية به ، فتصدر عفواً يشمل جميع الفلورنسيين المنفيين .. وتستثنى من بينهم دانتى ورفاقه .. الذين كانوا على شريعته . . منضوين تحت لوائه . .

وفي هذه الأثناء ضاعفت الأقدار الكارثة بأن مات الامبراطور... دون أن ينجز وعده ... فيحقق آمال دانتى الذى فقد — بموت الامبراطور — كل شىء . . وضاع منه كل رجاء ، وذهبت كل متاعبه وكتاباته أدراج الرياح ...!!

وكان موت الامبراطور . . فى أغسطس سنة ١٣١٣ . . . ثم ظل بعد ذلك شريدا ، طريدا ؛ إلى أن مات بعيدا عن وطنه .. دون أن يعترف أحد بفضله . . فويل لأصحاب الهمم والآمال . . من أغسطس . . . !!

كولمبس ..!

في يوم الجمعة ٣ أغسطس سنة ١٤٩٢

ودّع الشاطىء ينوى سفرة — ليس يدرى فى غد. ماذا يكون
إنما الآمال تحدوه إلى .. — خوض يم لم يخضه السابقون
قائلا : سجل أيا تاريخ في — صفحات المجد بين الخالدين
قصة المجد الذى تنوى له — هذه الرحلة .. إنا ظافرون
ردد الصحب بعزم قوله — ودعوا الريح إلى دفع السفين
وإلى المجهول ساروا صحبة — فى دجى الشك..وأحلام اليقين

* * *

تشرق الشمس من الماء وفى — قبة الفلك بصمت وسكون !
تقطع اليوم إلى مغربها — فاذا الماء لها خدر مصون
لا ترى شيئاً عدا الموج علا — لعناق الموج في شبه حنين ..!
وعلى الصفحة يرغو زبد — هو صوت الدهر فى أذن السنين
قائلا : هذا هو المجهول لم — تستبح حرمته مر القرون ..!
إنه الغامض لن تكشفه — من بنى الانسان أحداق العيون

* * *

لم يزل صوت الفقاقيع الذى — هو صوت الدهر من حين لحين
يملأ الجو هتافاً خافتاً — هو أنغام .. لتشجى السامعين

وإذا اليم عرته رجفة — رجفة المحموم يعروه المنون ..!
فعلى الماء شراع سابح — يقطع اليم بعزم الآمنين
إنه يسعى عليه فئة — وإلى المجهول جمعاً سائرين
غضب البحر، وثارت نفسه — واستحث الموج نحو المعتدين
فعلا الموج كهضب صاخباً — وعليه سمة كالحانقين
وإلى الفلك الذى يسرى التوى — فاغراً فاه كضرغام العرين
هاجه الجوع، وحانت فرصة — لاقتناص الصيد فى الغاب الحصين
سخر السابح من ثورته — وتهادى لا يبالى بالمهين ..
زمجر البحر لسخر ناله — ومن الحنق عرا البحر جنون
فدعا الأنواء فى نصرته — ليلاقى الخصم فى حرب زبون

* * *

يا شراعا بجناح سابح — فى الفضاء الرحب مشجى أمين
ما بك اليوم كريم جامح — أترى فى الموج خصما لا يلين؟
وهل الخصم يلاقى خصمه — مخفض الرأس بذل المستكين؟
حيرة تحويك فى حوزتها — أضلال قد عرا القوم مبين؟

ها هو اليأس إلى أنفسهم
يرسل الأطياف فى شبه ظنون
طالت السفرة .. ماذا يا ترى؟
أ إلى البحر خرجنا قاصدين؟؟

قدخرجنا نقصدالأرض.. وما

نؤمن اليوم بأرض لاتبين .. !

قد لقينـا الصعب فى رحلتنـا

وعلى الشقوى ظللنا صـابرين

إن تمـادينـــا فانا لا نرى

غير أنا فى عـداد الهالـكين

فلنعد يا قوم .. هـذى خدعة

صاغهـا الوهم بنفس الواهمين!

* * *

راع كولمبس ما شـــاهده

فى عيون الصحب من روح حزين

يعلن الثورة فى مبـــدئها

يصدع الآمال فى الركن المكين

فتر العـــزم ولم يبـــق له

غير أنقـاض رجاء لا يعين

هو ذا الماء تآخى والســما

وطغى اليـأس على حلم اليقين

* * *

ومن الدجنة لاحت فرجة

أرسلت نور هـدى لليائسين

قد رأوا طيراً بآفاق السما

يركب الريح ، فقالوا هاتفين :

إن هذا من تباشير الهدى !

وبهم صاح صبي فى جنون :

قدأرى الأرض.. إفطاروا نحوه

فى سرور .. ثم راحوا ينظرون

نشوة النصر أسالت دمعهم

وعلى السيد راحوا ينثرون

قبل الفوز ، وآيات الثنـــا

ودعاء المجد : إنا خالدون !

* * *

لقى الراحل فى سـفرته

من صنوف الهول ما يعيي الظنون

ولو اختار لبـدء الرحلة

غير «أوغيطس» ذا الشهر اللعين

لاهتدي دون عنـاء .. إنما

ثمن المجد شـقاء الطالبين

فاركب الأخطار ، إن رمت العلا

لن يرى العلياء للخوف خدين

مشعل الحرية

قم أيها الرجل وانقذ وطنك .. !!

تلك هي الكلمة التى تصاعدت من أعماق نفس المعلم يعقوب القبطى ، فملأت عليه فراغه ، وأضاءت سبيله بين ظلام الظلم الداكن .. الذى بدا أقتم عندما سطعت أنوار مشعل الحرية ، الذى جاءت ترفعه الحملة الفرنسية ، في يمينها ، كى تزيل بسناه ، الغشاوة من على عينى الوسنانين من أبناء النيل .. !!

أجل ..

لقد قضت مصر حيناً من الدهر ، ضربت عليها الذلة والمسكنة ، حزينة ، لاتسمع صوت أبنائها يعلو . . ولا تحس بأن من بينهم من يجرؤ على رفع نير الاستبداد عن أعناقهم . . وكانت تئن ، وكانت تتوجع . . والنيل يترجم عن آلامها ، بدموعه الفياضة ، تتجمع كل عام ، وتتدفق جملة واحدة ..

ولقد رأى الأبناء النور . . فراقهم . . فلم تعد نفوسهم تستسيغ الظلام .. فانهم ليرونه .. أسراً ضيقاً ، وسجناً قبيحاً ..

شعر المصريون بأن أثمن شيء على العالم بأسره ، هى أنفاس الحرية .. تتردد في طمأنينة .. ولاحياة فى ظل الذل ، والاستعباد ،

وأن من يستعبدونهم ، ليسوا إلا بشراً مثلهم ، ليس لهم عليهم حق السلطان .. ولا السيادة ..

أكبرت الديار هذه الفكرة .. ورقصت مصر طرباً إذ امتد شعاع الأمل إلى أعماقها .. وتغنى النيل بأنغام خريره . . مرتلا هذا الجلال الذى شب فى نفوس أبنائه، تلك الفكرة النابهة التى خامرت نفوس الجميع، ولم يستطع أحد أن يفاتح بها أحداً.. لولا أن أهابت بالمعلم يعقوب نفسه ، فكاشف بها بعض أترابه ، ومواطنيه ، من سراة مصر ، ذوى المكانة . . فألفوا وفداً . . قصد إلى إنجلترا وهو على رأسه. في عزمه أن يفاوض إنجلترا هو وأتباعه على ألا تدع فرنسا تدخل مصر ..وأن تعاونهم على طرد الأتراك أيضاً من البلاد حتى يكون لهم حق السيادة على أنفسهم .. في إدارة بلادهم .. وثمن ذلك .. أى ثمن معاونتها إياهم ، أن يرعوا مصالحها فى الشرق ويضمنوا لها مصالحها التى تحتك بهم..!

وأبحر الجميع دون أن يعلم أحد بما فى نيتهم .. .. .. وما كانوا ليعلموا أن أغسطس سيواجههم بشؤمه .. !!

واهاً للناس من أغسطس !

لقد مرض المعلم يعقوب ، الذى هو رأس هذا الخير .. ومنبع هذا النور الذى منت مصر نفسها بسطوعه . . مرض

الرجل فى الطريق .. ووافته المنية .. ولم تزل البلاد ترزح تحت عبء همومها . . ولم تتخلص من ظلامها . . وكان ذلك فى ١٠ أغسطس عام ١٧٨١ وبموته . . انطفأ الشعاع . . وتوارى الرجاء . . ! !

المنقذ . . !

هذا هو النيل . .

كل يوم اضطراب على شاطئيه ، ودماء تجرى ومعارك تدور . .

وأبناء البلاد تنوء كواهلهم بالضرائب الباهظة التى يرهقون بها . . والحال تسير من سىء الى أسوأ . . ما بين عسف الدولة العلية . . وظلم المماليك الذين قبضوا على زمام الأمور فى البلاد ، وساموا الناس الخسف والعذاب .. !

وها هى ذى البلاد تنتقل من درجة إلى ما دونها . . آخذة فى التدهور . والانحطاط ، ولا منقذ ولا مغيث .. !!

وسط هذا الاضطراب .. وبين هذه القلاقل . . وبجانب هذا الظلم .. نبتت زهرة نفحت النيل وواديه بأريجها .. فانتعش . . وفاضت عليه بعطرها فأحيته . . تلك الزهرة . . هى رجل . .

كله همة .. وكله نشاط .. وكله ذكاء متوقد .. تواق إلى العلياء .. يفكر ويدبر ويحسن التصرف ..!

هذا هو .. المغفور له .. محمد على باشا ..!!

ولن أطيل عليك يا قارئى فى هذا الصدد .. فما كتبت لكى أقص عليك تاريخه المجيد .. ولكن لكى أقول :

« ويشـــاء القدر أن تبكى مصر منقذها فى ٢ أغسطس عام ١٨٤٩ »

ملحوظة : لضيق المقام لم نستطع سرد كل ما وصلت إليه أيدينا من الحوادث المهمة التى حولت وجه التاريخ وكانت فى أغسطس وان الذى ينقب فى الأسفار لا شك انه سيعثر على الكثير . . فمثلا الحرب الكبرى ابتدأت فى ٤ أغسطس عام ١٩١٤ ويوم ١٠ أغسطس المشهور فى التاريخ الفرنسى لقد تحطم فيه تاج الملكية وغير ذلك مما يضيق عنه الحصر فمعذرة ياقارئى العزيز



نفس حبيســـة

ليلاى :

أغالب دمعى كلما طاف بالنهى

شـــقاء فؤادى فى ظلام هواك

وأغفل نفساً ــ ما حفظت إباءها

وأذللتها يا ليل ــ عند لقـــاك

تثور ، وتأبى أن تظل مهانة

فما صنت يوماً كبرياء فتــاك .. !

وكيف يدوم الحب ، والقلب فى لظى

ولم ير يا ليلى جميل رضاك ؟ ؟

رضــــاك جميل ، قد لمست جماله

ولكن بأحلام بهن أراك .. !!

وأبسم للقيا ؛ ونفسى حبيسـة
وقلبي يخشى منك مر جفـاك
فكم مرة فيهـا التقينا ولم أنل
سلامك يا ليلى ، فما أقسـاك
قسوت على قلب يعذبه الجوى
وأى جوى يا ليل غير جواك ؟
أكان التجافي منك ليلى عقيدة
أم انك تخشين العيون تراك . . ؟
تحدثني نفسى ، وقلبي والنهى :
وما فيهمو من كاذب أفاك . . !
بأنك يا ليلى عطوف ، وإنما :
نفارك دلّ فى هوى مضناك . .
تظنين قلبي من صخور جلامد
وليس به حس؟ فكيف هواك؟؟
وترمين حبي بالظنون . . وليس لى
بدنيا الأمانى ، غير صفح ملاكى !
إذا كان من ذنب أتيت : ولا أرى
بحبك إلا أن رضيت هلاكى . . !
فذنبي إلى نفسى . . وليس إلى التى
وجدت هواها قاسى الأشـواك

واسنى

مرضت .. وحجبنى المرض أياماً عن الصحب .. وكان مرضاً قاسياً أشفق الجميع على من التلف لشدة وطأته .. وبعد مدة عانيت فيها من الآلام ماعانيت .. أخذت أتقدم نحو الشفاء بخطى وئيدة .. إلا أن القضاء أبى على الاستمتاع بلذة العافية ، فقد سدد الى الفؤاد سهامه فأدماه .. إذ قدم من يطلب يدفتاتى .. وكانت تباشير الرضى والقبول بادية على ذويها : .

وفى يوم ٢١ يوليو .. قبل أن أعود للاخوان بيوم كنت واقفاً فمرت بى السيارة التى تقل أهل (الخطيب الجديد) فكنت أراها ، وكأنها القبر المتحرك الذى أعد لفؤادى ليدفن فيه .. وما أشنعه من قبر ..!!

وفى اليوم الثانى عدت لمجالس الصحب .. وأنا مهدم الكيان ، فكتب لى الأخ الشاعر الأستاذ عز الدين افندى رشاد .. قصيدة يهنئنى فيها بسلامة العودة والنجاة من مخلب المرض ، وكان لايعلم من أمر نفسى شيئاً . فكتبت إليه رداً على أبياته . . .

حفروا للفؤاد بالأمس قبرا ... بعدما شتتوه شرقا وغربا
نتفاً . . في ظلام عيش ثقيل ... نصب الدهر فيه للقلب حربا
كنتَ فى حومة الوغى ويقينى ... أننى عاشق سأفقد قلبا
ليت قبراً لمهجتى حفروه ... كان للجسم من همومى حجبا

* * *

واسنى.. واسنى .. صديق إنى ... قد لمست الحياة جمراً ولهبا
وتحطمت ، كيف حال حطيم ... صار للحزن والنوازل نهبا
وتجرعت كأس صاب مرير ... ليس ذا نشوة ولا مستحبا

هو سم .. وأى سم زعاف مثله قسوة وأكثر رعبا
أحرق الكأس خافقاً بضلوعى عاش طول السنين يخفق حبا
لجميـــل غزا الفؤاد هواه وسقتنى يمينه الكأس عذبا
كان لى سلوتى، وكان أنيسى كان لى قربه دواء وطبا ..
كان ذخرى، وكان كل رجائى بحياة صفاؤها صار كربا

* * *

أيها القلب ليس رزؤك هينـــاً
لا أرى مثـل خطبك اليوم خطبـا
إبك! .. نح .. ! فى الضلوع لست ملاماً
أى خطب عرا كخطبك صبا .. ؟؟
نز .. ! ترنح من الأسى والعـــذاب
إقض باقى الحيـــاة لطماً وندبا ..
مزق الصـدر ، إيت مـا أنت آت
ليس فيما تجىء يا قلب عجبـــا .. !
أى لوم عـلى الذى ليس يرجو
أن يرى النور ، دون أن يجنى ذنبا ؟

* * *

واسنى.. واسنى.. صديقى إنى قد لمست الحياة جمراً ولهبا.. !!

صورتى . . !

.. فى مساء ٣١ اغسطس سنة ١٩٣٦ مررت أمام المرآة اتفاقاً . فرأيت ماقد كسا الوجه من شحوب .. والجسد من هزال .. روعنى مرآها فاغرورقت عيناى بالدموع ، وإذا لسانى يجرى بهذه الأبيات :

صورتى ..قصتى .. ألا خبريها ... أننى اليوم فى طريق الفناء . !
إن جسمى يذوب «ليلى» رويداً ... من همومى وشقوتى وعنائى
وأنا لا أريد عمراً طويلا ... بعد ما غالت السنون رجائى
كيف أحيا .. ولا رجاء أمنى ... فى ظلام الحياة غير الشقاء
أين آمالى العذاب توارت ؟؟ ... أين صفو الحياة ؟؟ أين هنائى
لا أرى اليوم فى الحياة ضياء ... أتدوم الحيـــاة دون ضياء ؟
ألدى الحيـاة صارت ظلاما ... أنا يادهر ..؟؟ أم لدى الأحياء ؟؟
كان لى فى الحياة نجم مضىء ..! ... أين ولى ..؟؟ وكان حلو السناء
ألغيرى يضىء نجمى رضياً ؟ ... أيها الدهر ..! أم بغير رضاء ؟
لا أريد المتواب ..! حسب فؤادى
أن توارى الرجاء دون عزاء .. !!

زفرات السحر ... !

هو ذا الكون تولاه السحر ... وفؤادى لم يزل يضطرب
من رزايا الدهر من شر الغير ... إن قلبى بالنوى يلتهب . . !!

قضت الأيام أن أحيا شقيا ذائب النفس حطيم الأمل
ليس لي في الكون من يحنو علي ولشقواي . . . تمادى أجلي

* * *

نزعوا مني سويداء فؤادي ثم أقصوها ، وأبقوني وحيدا
ليس لي غير دموعي وسهادي لا ترى عيناي في الدنيا جديدا

* * *

يا حبيبي هل ترى ألقى جواباً لسؤال ثار في نفسي وحار ..؟
أرغبت المال .. ؟ أم رمت الصحابا . . ؟
أترى قد كنت حر الاختيار ..؟

* * *

خدع المال فؤاداً لك حياً . . أو يغري المال ربات الجمال ..؟
أو صدق كل ما قيل إليا كيف هذا .؟ أو حق ما يقال .؟

* * *

يا حبيبي : إنما المال رداء سوف تبليه الليالي والمحن .. !
كيف ترضى الشيء يعروه فناء عهده يمضي كأحلام الوسن؟؟

* * *

وضع المال بدنيانا قياساً .. لبني الدنيا . . . فيا بئس القياس
جرد الدهر من المال أناساً
أو ليسوا في الورى ضمن الأناس . . ؟؟

كم غبي ستر المـال غباءه   فغدا فى الناس مسموع الكلم..!
ولبيب عاره الفقـر رداءه   فتولى الناس عنه فى صمم..!!

قفص العظـــام ...؟

ما الحياة إلا قفص قضبة تتراءى من الخارج ، إذا نظرها الانسان بغير بصيرة نافذة ، وكأنها صيغت من الذهب الأبريز.. ولو لمس حقيقتهـا المرة للسعته النـار التى تضطرم فى داخله . فما هذا القفص الأبريزى القضب ، إلا أتون من اللهب .. وما الناس في داخله إلا أشباح تتراءى فى ظلماته متباينة .. منهم السعيد الطروب .. وهذا من لا عقل له ، ولا إدراك .. وبينهم التعس المـكدود .. وهـــذا صاحب النهى والشاعرية ..

***

أنا ياحبيبتى بين جنبيه شريد طريد .. وكأننى سجين ، أترنح لقسوة الألم الذى أتلقاه .. لا يخدعنى زخرف القضب الأبريزية ، ولابريقها الوهاج .. وما العيش بين أركانه إلا مر وحنظل .. وليت لى منفذاً للنجاة منه ..!

هون عليك أيها القلب الشقى
وأنت أيتها النفس المعذبة الثائرة .. اهدئى .. فعما قريب

ستنجاب الظلمات . . وتنقشع الغيوم وتبدو الحقيقة . . فاذا السعيد والشقى سواء . . وقد أدرك الجميع اللهب ، فأهلكت الأجساد ، فيذهب كل جسد بما جنى ، ويبلى الأديم ويختلط بالتراب . . ولا شيء يبقى بين جنبى هذا القفص الضيق إلا العظام . . تتحدث إلى الأبد ، بسر شقاء الأشقياء . . ! !

بشرى جائع . . !

الحيـــاة كلها خدع وأكاذيب ، وليس فيها غير الرياء والملق . . ولا شعاع للحقيقة ينير السبيل بين ظلماتها الحالكة . .

لقد نقبت عن الحقيقة الواقعة . فاذا الناس لها لايعرفون . . ومن ذكر اسمها يفرون . . ويفرقون . . ولم أبصر لها بصيصاً يضطرب بين هذه الحلكة الدامسة . . ! !

إننى لأتخبط فى الدياجير ، تأذونى الأباطيل التى يسير فيها الخلق والأوهام التى ملأت نفوسهم . . وإن نفسى لحيرى جائعة . . نهمة . . تريد أن تشبع على مائدة الحقيقة . . ولكن أين هى . . ؟ ؟

إنها لا أثر لها فى الكون . . ويخيل إلى أننى سأظل جائعاً إلى الأبد . . ! !

يقولون . .

ولكنني ارى . . ! !

يقولون إن الحب فوق كل شيء . . ولكنني أري أن الكرامة فوق الحب . . فان من يتهم في عاطفته ويعد هذا الاتهام إهانة وجب عليه أن يسحق قلبه بقدميه . . مستعذباً مرارة الألم ، في سبيل أن يرى تاج الكبرياء يظلل رأسه . . ! !

ذلك مبدئى الجديد

ختـــام

ما أجمل الحياة وأبهجها وقد خلت من الألم ، وانقشعت من سمائها سود الديم ، وأخذت دعتها وهدأتها تكسوانها بظل وارف ، وتنفحانها بعبير نفاذ أخاذ . . !

فالنور يتراءى وعلى صفحتيه كل شيء جميل

والهواء الرقراق وفى ثناياه النفح العطر

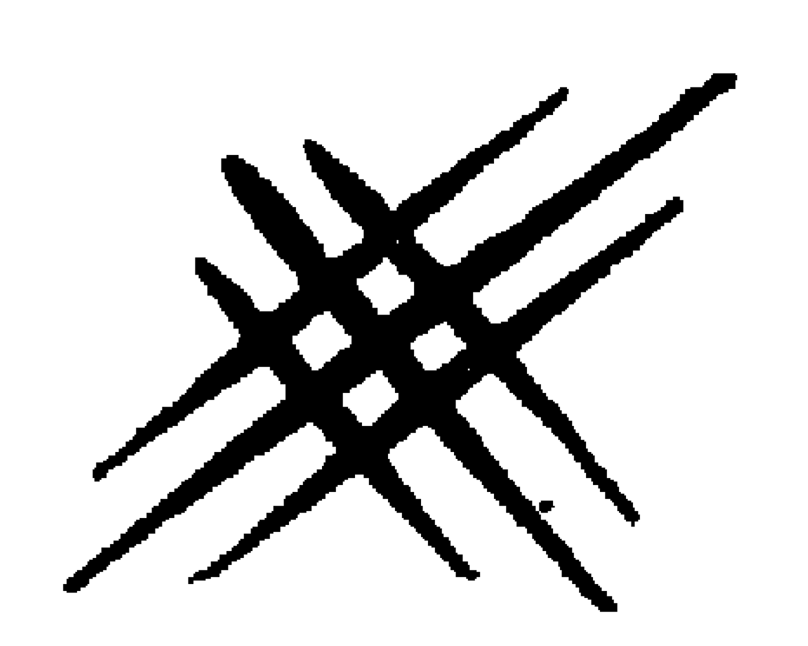
والهدوء يغمر الشعور ، فتفيض النفس بأحاسيس شتى ، حالمة ، ناعمة . .

إني لأختتم اليوم كتابى هذا ، فأودع به ثلاثة وعشرين عاماً تصرمت من حياتى ، مليئة بالشقوة والشجن . . . والعنا

والضنى . . ختاماً يخلق عهدا جديدا ، لا يمت للماضى بصلة ؛ ولا تربطهما الأسباب

ولقد تبدل يقينى بعد أن تبين لى أن العالم حتى الساعة لم تنبعث بين ربوعه المرأة التى تستحق من الرجل تضحية وإيثارا .. حتى ولا أن يسكب فى سبيلها دمعة .. ؟

٢٠ فبراير سنة ١٩٣٧



ملحوظة : وقعت بعض أخطاء مطبعية نذكر منها فى صحيفة ٢٠ سطر ١٨ « الا ابليس » وصوابها « الا أن ابليس » فى صحيفة ٣٧ سطر ١٢ « دمى المهراق » وصوابها « دمى المراق » وفى صحيفة ٥٥ سطر ٧ « لكى يسكبه الشفق » وصوابها « لكى يسكبها » وفى صحيفة ٨٦ سطر ٥ « الفريق » وصوابها « الغريق » وفى صحيفة ٩٧ سطر ٧ « أمه » وصوابها « أمامه » وغير ذلك نتركه لذكاء القارىء . .

ولا يفوتنا قبل أن ننتهى من الكتاب أن نشكر للأستاذ عبد الجليل افندى اسماعيل الخطاط بالمساحة بالفيوم . . فضله فى تحلية رؤوس الموضوعات بخطه الجيل . . فليتقبل شكر أخيه الذى يدعو الله ألا يحرمه من أفضاله ؟

